علم اجتماع

الأمس والغد

أفكار موجزة (1918)

غُوستاف لُو بون

ترجمة

د. باسل الزين

الأمس والغد

أفكار موجزة (1918)

غوستاف لو بون

ترجمة

د. باسل الزّين

www.daralrafidain.com

الأمس والغد

أفكار موجزة (1918)

غوستاف لو بون

ترجمة: د. باسل الزّين

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية:

Hier Et Demain
PENSÉES BRÈVES (1918)

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

Yesterday and Tomorrow

Brief Thoughts (1918)

By Gustave Le Bon

Translated by Dr. Bassel AlZein

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2023 (1000 نسخة)

Rafidain 2022 ـ Arabic Translation Copyrights@Dar Al

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/All Rights Reserved
حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 01 - 5

مقدّمة المترجِم

تمتاز الكتابةُ الشّذريّةُ بِشَرْطَي الإيجاز والتّكثيف. ومع ذلك لا يكفي توفّر هذين الشّرطين لكي نتحدّث عن شذرة فلسفيّة أو أدبيّة أو حتّى علميّة. بهذا المعنى، جاءت الشّذرات النيتشويّة، لا سيّما في كتابه **ما وراء الخير والشّرّ**، موجزةً وكثيفةً، كما جاءت لتكسر قالبَ السيستم الفلسفيّ التقليديّ، وتفسح في المجال أمام نوعٍ جديد من الكتابة.

حقيقة الأمر أنّ الكتابة الشذريّة تتيح لصاحبها إمكان اعتصار أفكاره وصبّها في قالب لغويّ يُعْرِضُ عن الإسهاب، وتتيح له أن ينزع إلى حشد أكبر قدرٍ من الأفكار والمعاني في أقلّ قدرٍ من الألفاظ.

لكن علاوة على ذلك، ينبغي لكاتب الشّذرات أن يمتلك معرفة موسوعيّة بالموضوعات التي يعالجها، وإحاطة شاملةً بمساراتها التاريخيّة، وتنظيراتها الفلسفيّة، وتسويغاتها العلميّة والمنطقيّة. بعبارة أخرى، يُتيح الإسهاب لصاحبه فرصة تتبّع الفكرة عبر مظاناتها المختلفة، ناهيك باستناده إلى جملة مصادر ومراجع تدعم رأيه، وتؤيّد حججه. بيد أنّ الكتابة الشذريّة، بما هي كتابة عارية إن صحّ القول، تتطلّب من كاتبها الانسلاخ عن كلّ فضاء خارجيّ، وإصاخة السّمع إلى الأفكار في ذروة تجلّيها المعنويّ الموضوعيّ، فضلًا عن امتلاكه قدرةً تعبيريّة استثنائيّة ذات طابع حُكميّ صارم، ذلك بأنّ قوام أيّ شذرة هو الوضوح في الرؤيا، والقدرة على إطلاق الأحكام المنجزة والصّارمة والنّهائيّة.

بهذا المعنى، أتى كتاب غوستاف لو بون تتويجًا لمرحلةٍ فكريّة وعلميّة طويلة خطّ فيها كتبًا ودراساتٍ وأبحاثًا. ويقيننا أنّه عمد، بعد مسيرة فكريّة طويلة، إلى اعتصار جملة أفكاره على شكل شذرات تتيح لقارئه تبيّن أطاريحه الفكريّة والفلسفيّة منضّدة ومتناسقة توجز كلّ ما قاله بإسهاب، وتلخّص أحكامه المتفرّقة في كتابٍ ذي بنية متراصّة، كتاب ينطوي على تبصّرات واضحة، ومخرجاتٍ بيّنة.

والحال أنّ كتابه **الأمس والغد** لا يتمحور حول موضوع بعينه، بل يعالج مسائل فلسفيّة وسيكولوجيّة وسيّاسيّة وتاريخيّة وعلميّة، مسائل سبق له أن عالجها بإسهاب في كتبه الأخرى من مثل: القوى الصوفيّة والعاطفيّة والعقلانيّة، ناهيك بالمسائل العلميّة والطروحات والرؤى الفلسفيّة.

وعليه، يتعذّر علينا تلخيص الملخَّص في هذه المقدّمة، ذلك بأنّ الاضطلاع بهذه المهمّة يعني إعادة صوغ الكتاب بأكمله.

حقيقة الأمر أنّ الكتاب متناسق على نحوٍ لا نستطيع معه أن نُقدِّم فكرةً على أخرى، أو نتخيّر موضوعًا دون آخر لإلقاء الضّوء عليه. الكتاب محكم بإتقان، وشذراته منسوجة بعناية. لذا لا نغالي إذ قلنا إنّ قراءة هذا الكتاب تُغني إلى حدّ كبير عن قراءة كتبه الأخرى التي عالج فيها بإسهاب كلّ الموضوعات الواردة هنا.

مع ذلك ينبغي أن نتفطّن إلى أمرٍ غاية في الأهميّة مفاده أنّ قراءة هذه الشذرات قد تكون من الصّعوبة بمكان إذا لم تتوفّر للقارئ معرفة مسبقة بجملة نتاج لو بون، ذلك بأنّ التّكثيف والإيجاز اللذين ينطوي عليهما هذا الكتاب يحملان بين طيّاتهما غموضًا يستثير القارئ لمعرفة الوقائع التي انطلق منها الكاتب في صوغ أحكامه المبرمة.

ويُسجّل للمؤلِّف هنا أنّه أوّل من تجرّأ على صوغ أحكامٍ علميّة وسيّاسيّة على شكل شذرات، ونعني تحديدًا مسائل تتعلّق بالكون، والكوانتم، والذّرة، والاشتراكيّة، والرّأسماليّة، والشيوعيّة، والدّولانيّة، إلخ.

كتاب **الأمس والغد** تحفةٌ نادرةٌ، إذ علاوة على العمق الّذي ينطوي عليه، لا يكتفي بصوغ شذرات تتعلّق بالحوادث الماضية، بل ينزع كذلك إلى رصد رؤى مستقبليّة علميّة وفلسفيّة وسياسيّة تستشرف إمكانات، وتتوقّع سلوكات، وتستصوب خيارات.

ونحن إذ نختتم ترجمة سلسلة أعمال لو بون، نؤكّد أنّ هذا الكتاب هو مسك الختام، فكرًا ولغةً وإيجازًا وتكثيفًا واستشرافًا.

د. باسل بديع الزّين

مقدّمة

لم يُراكِمِ الصّراعُ الهائلُ، الذي تصادمت فيه بعنفٍ كبير كلُّ قوى العالَم، خرابًا ماديًّا فحسب، بل راكم كذلك خرابًا أخلاقيًّا. فإذا رأينا العالَم يتغيّر، فذلك لا يعود حصرًا إلى أنّ مدنًا دُمِّرَت عن بكرة أبيها، وإلى أنّ حدودًا جغرافيّة تغيّرت، بل يعود كذلك، وعلى وجه الخصوص، إلى أنّ المفاهيم القديمة التي وجّهت حياة الشّعوب فقدت قوّتها.

الواقع أنّ الأفكار التي أشرقت في سماء الحضارة، ونظّمت العلاقات بين النّاس، راحت تشحب شيئًا فشيئًا. لذا فقدت الشّعوب ثقتها بقوّة البنى الاجتماعيّة التي تحميها.

وعليه، أظهرت مختلِف الحكومات ـ مهما كان شكلها ـ العجز نفسه. ذلك بأنّ النظريّات جميعًا: السّلميّة، والاشتراكيّة، والحريّة، والأوتقراطيّة أظهرت العجز عينه. بعبارة أخرى، لم تكشف أيّ عقيدة من العقائد، التي اقتُرِحت على الأمم، فضيلة فعّالة. الحقّ أنّ الشّعارات المحمَّلة بالآمال فقدت كلّ مكانة لها.

إلى ذلك، لم تقتلعِ الملحمةُ القاتلةُ المتحدِّرةُ من الطّموحات الألمانيّة الشّعوبَ من حياتها اليوميّة فحسب، بل اقتلعت كذلك المفاهيم التّقليديّة التي كانت بمثابة منارةٍ لهم.

وبعد، أُلفيَ مسيرُ العالَم متوقّفًا، والمستقبلُ منطويًا على ظلمات دامسة، لا لشيء إلّا لأنّ شعبًا مقتدرًا بقوّة السّلاح اندفع إلى أوروبا لكي يستعبدها. وعليه، تذرّع هذا الشّعب بفلسفةٍ يَكُنُّ لها إعجابًا من دون أن يفهم مخاطرها، مؤكِّدًا أنّ القانون الّذي يُفرَض بالقوّة يتفوّق على كلّ القوانين الأخرى. الواقع أنّ الإنصاف، والعدالة، والإنسانيّة، وكلّ المكتسبات النّاجمة عن عصور من الجهود المبذولة صُرِّحَ بأنّها غير ذي قيمة. تأمّلت ألمانيا أن يتبيّن أن لا حول ولا قوّة لهذه المكتسبات.

لكي تُسهِّل هذه الأمّة مشروعها لجأت إلى الوحشيّة وإلى احتقار القوانين التقليديّة المتعلِّقة بالشّرف التي تُثير إعجاب العالَم بأسره، وأَلَّبَت سريعًا ضدّها الشّعوبَ التي لا تستحقّ هذه العودة إلى البربريّة.

لقد تمّ صدّ الغزو، لكن كم من الوقت ينبغي الاستمرار في التسلّح من أجل تجنّب هجمات شعب لا يعترف بأيّ قيمة للمعاهدات؟

إلى ذلك، عَرَف التّاريخ حقبات تصرّف فيها النّاسُ كما يتصرّفون اليوم، بحيث لم يجدوا ضرورة تدفعهم، على امتداده، إلى التّفكير. حقيقة الأمر أنّ الإنسان المعاصِر لا يتذرّع بِصُدَفِ مصيرٍ غير حتميّ، ولا بإرادات عليا لآلهة كثيرة التّقلُّب من أجل تفسير الأشياء، بل

يُفتِّش في ذاته فقط عن أسباب مصيره. فهو يرى خطر الأوهام، ويفهم أنّ العالَم لا تحكمه الخيالات المتحدِّرة من تلك الرّغبات.

الحقيقة أنّ الحربَ، بوصفها قوّة مدمّرة كبيرة للأوهام، غيَّرت بشكل ملحوظ رؤيتنا العامّة للأشياء، ناهيك بأنّها أجبرت كلّ العقول على التأمّل بمسائل الحقّ، والسّيكولوجيا، والتّاريخ، وأعني المسائل التي تُرِكَت قديمًا للمختصّين.

على المقلب الآخر، يُمكن القول إنّ المشكلات التي سيُولّدها السّلم كثيرة وصعبة. ومن شأن الاعتقاد ببساطتها أن يقود إلى حلول غير يقينيّة تنطوي على تبعات خطيرة. كلّ شيء يتمّ في الصّرح الاقتصاديّ والاجتماعيّ. فالمصالح متشابكة فيه، ومتعارضة. الحقّ أنّ الضّرورة تُهيمن على هذه المصالح أكثر من هيمنة الإرادات.

سبقَ لي أن خصّصت مؤلّفًا **للدروس السيكولوجيّة من الحرب الأوروبيّة**، ومؤلَّفًا آخر **للتّبعات الأولى للحرب**، وأعتزم أن أتفحّص لاحقًا المشكلات التي ستُثيرها.

قادتني تلك الدّراسات المطوَّلة، في نهاية المطاف، إلى عدد صغير من الخلاصات التي تسهل صياغتها في شكل أفكار موجزة.

تبدو الفكرة الموجزة شكلًا أدبيًّا متكيِّفًا جدًّا مع ضرورات العصر الحاليّ. فحقل المعرفة أصبح واسعًا جدًّا، والتخصّص ضيّقًا للغاية إلى حدّ وجب معه الاستسلام لِعَدم التطرّق إلّا إلى الأفكار العامّة التي من شأنها أن تدعم مختلف فروع المعرفة. فهذه الأفكار تُشكِّل البنية السيكولوجيّة للأشياء، وروح الظّواهر.

الواقع أنّ هذه الأفكار قليلة في كلّ حقبة من الحقبات، فهي تتطوّر ببطء، ولا يُمكن أن تتغيَّر من دون أن تتحوّل الحضارات التي تُوجِّهها.

الحقّ أنّ الأفكار العامّة هذه ـ المكثَّفة في شكل عبارات موجزة ـ والتّأمّلات التي تستثيرها، لا فائدة منها إلّا إذا كانت توليفة لحقائق كثيرة. فهي تقول الكثير من الأشياء في كلماتٍ قليلة، وتتحرّر من الخطابات المطوَّلة. إلى ذلك، يقتصر دورها بخاصّة على استثارة التّفكير وليس على البرهنة والإثبات.

سوف يعثر القرّاء الكرام من أصقاع الأرض كافّة، الّذين يُتابعون فكري منذ زمن طويل، عبر لغات مختلفة، سوف يعثرون على المبادئ التي طبّقتها بالفعل على دراسة المشكلات التّاريخيّة الكبرى. لقد حاولتُ مرّة جديدة أيضًا أن أُحرِّر السّيكولوجيا من النّظريّات الكُتبيّة الغامضة، وجعلها تتكيّف مع الحقائق اليوميّة التي يبدو أنّها تجهلها، مع العلم أنّه بمقدورها وحدها أن تُفَسِّرها.

سوف يكون العمل الجديد هذا مفيدًا إذا قاد القارئ إلى الأخذ بالحسبان بعض أوجه الظّواهر التي أَفْلَتَتْ منه، ومراجعة آرائه عن طريق توضيح الأشياء ومراجعتها، والتّصدّي بخاصّة للتّفسيرات البسيطة التي لا ينطوي عليها أبدًا التّعقيد الشّديد للظواهر.

إلى ذلك، لن تكونَ الأفكار التي ولّدها مشهد الحرب، ولا إمكانات المستقبل، المصدر الوحيد الذي يشتمل عليه هذا الكتاب. الواقع أنّه يُختَتَم بتأمّلات علميّة تحظى باهتمام عام. لا يُمكنُ الكاتِبُ أن ينسى أنّه كَرَّسَ جزءًا من حياته لأعمالٍ مُختبريّة، وأنّ العلم هو المُولِّد الوحيد ليقينيّاتنا النّادرة، والعزاء الكبير في خلال تلك السّاعات الحالكة حيث يختفي سحر الحياة، وظلّ الموت يتعاظم في كلّ يوم، والمستقبل نفسه يبدو خاليًا من الأمل. الواقع أنّ تسلسل السّاعات سيكون ثقيلًا للغاية، إذا لم نستطع أن نجول، من أجل التهرّب من الحقائق التي تستحوِذ علينا، في مناطق العلم المحض القصيّة، هناك حيث تتبلور القوانين السّياديّة التي تُوجِّه العالَم نحو أهداف خفيّة.

باريس، تشرين الثّاني 1917

الكتاب الأوّل القوى التي تقود التّاريخ

الفصل الأوّل القوى الماديّة والأخلاقيّة

(1)

تُمثِّلُ الحروبُ التّجسيدَ المرئيَّ للقوى غير المرئيّة الـمُتصارِعة.

(2)

القوى السّيكولوجيّة هي روح الظّواهر الماديّة.

(3)

القوى الماديّة هائلة. القوى السّيكولوجيّة منيعة (لا تُقهَر).

(4)

الحرب مثال رائع على قُدرة القوى السّيكولوجيّة التي تقود العالَم. إنّها تُظهِر بأيّ سهولة يتلاشى الخوف من الموت، وتتلاشى المصالح الشّخصيّة حالما تعمل هذه القوى.

(5)

توقّعت ألمانيا، إبّان استعداداتها للحرب، كلّ شيء، إلّا تأثير العوامل السّيكولوجيّة. والحال أنّ العوامل هذه أصبحت قويّة بما يكفي لكي تُؤلِّبَ العالَم ضدّ ألمانيا.

(6)

طالما كانت القوى السّيكولوجيّةُ الحكّام الحقيقيّين للشّعوب. وبتحوّلها إلى معتقدات دينيّة، أو سيّاسيّة، أو اجتماعيّة، تقود، بحسب اتّجاه عملها، الحضارات إمّا إلى الازدهار أو إلى الزّوال.

(7)

تمتلك القوى التي تقود التّاريخ: القوى البيولوجيّة، والوجدانيّة، والصّوفيّة، والجمعيّة، والفكريّة، تمتلك أشكالًا مختلفة من المنطق، لا يجمع بينها أيّ قاسم مشترك.

الفصل الثّاني القوى البيولوجيّة والوجدانيّة

(1)

تتضمّن القوى البيولوجيّة كلّ الحاجات الضّروريّة من أجل حفظ الحياة. تُوَجَّه هذه القوى بواسطة عاملين كبيرَين يتعلّقانِ بنشاط الكائنات جميعًا: اللّذة والألم.

(2)

القوى الوجدانيّة، أي المشاعر والأهواء، توضع غالبًا في خدمة القوى البيولوجيّة، أمّا العقل فيقف عاجزًا في مواجهتها.

(3)

طَوَّر تَقدُّم الحضارة الذّكاءَ بشكلٍ ملحوظ، لكنّه لم يستطع أن يفعل شيئًا حيال المشاعر التي يُشكِّل مجموعُها الشّخصيّةَ. الحقيقة أنّ الطّموح، والجشع، والوحشيّة، والكراهية مشاعر تصمد وتبقى في كلّ العصور.

(4)

يتّفق النّاس، من مختلف البلدان، على غالبيّة المسائل العلميّة أو التّقنيّة المتعلِّقة بالذّكاء، ذلك بأنّ التّجربة هي خير مُعين لهم. في المجال الدّينيّ، أو السّياسيّ، أو الاجتماعيّ، تحلّ الانطباعات الشّخصيّة محلّ التّجربة، والفهم لا يكون ممكنًا إلّا بين أشخاص يتمتّعون بمشاعر متماثلة. لم يعد الأمر يتعلّق، إذًا، بصِحّة الأشياء، بل بات يتعلّق بهويّة المشاعر التي تُوَلِّدها تلك الأشياء، لا سيّما أنّ هذه الهويّة هي التي تخلق الوفاق.

(5)

تتعايش الاختلافاتُ الفكريّةُ بعضها مع بعض، والحجّة الضّعيفة تنحني أمام الحجّة القويّة. على العكس تمامًا، لا تتسامح الاختلافات الشّعوريّة بعضها مع بعض، فالعنف وحده الّذي يُولِّدها.

(6)

المشاعر تُصبِحُ مُعْدِيَةً بسهولة، أمّا الذّكاء فلا يكون كذلك البتّة.

(7)

يتساوى البشر في المجال الشّعوريّ أكثر ممّا يتساوون في مجال الذّكاء.

(8)

لا تحظى المشاعر والذّكاء بتطوّر موازٍ، ولا بمقياس مشترك، ذلك بأنّ حضارة راقية جدًّا يُمكنُ فرضها بسهولة على مشاعر مُنحَطّة للغاية.

(9)

الواقع أنّ رجالًا يتمتّعون بذكاءٍ حادّ يمتلكون أحيانًا، من وجهة نظر شعوريّة، ذهنيّة شبيهة بذهنيّة شخص همجيّ.

(10)

إنّ الإفراط في شعورٍ ما كفيلٌ بجعل مَلَكة التّفكير تختفي.

(11)

ينتهي الأمر بشعبٍ لا ينجح في السّيطرة على غرائزه الوحشيّة إلى تمجيد هذه الغرائز، لكي يكون بإمكانه الخضوع لها من دون الشّعور بالعار. الحقّ أنّ مهارة الفلاسفة الألمان كانت كبيرة عندما سعوا، انطلاقًا من أسباب بيولوجيّة وتاريخيّة، إلى تبرير دوافع عرقهم التّأسليّة المتعلِّقة بالغزو، والقتل، والنّهب.

(12)

لا يُمكن محاربة بعض المشاعر إلّا من خلال مشاعر أخرى مماثلة. الحقّ أنّنا لا نتغلّب على الشرّ، والعنف، وسوء النيّة بالصّدق، والمبادئ الأخلاقيّة.

(13)

فَهِمَ الكتّاب المسرحيّون الكبار، من كلّ الأزمنة، أنّ المشاعر لا تُقَسَّم أبدًا إلى درجات. بيد أنّ الشّعور الأكثر حدّة يُسيطر، في وقت مُعيَّن، على كلّ المشاعر الأخرى. في هذا السّياق،

أظهر يوربيديس الغيرة التي اجتاحت الحبّ الأموميّ عندما قامت ميديا Médée بالتّضحية بأبنائها الّذين أنجبتهم من ياسون Jason، عقابًا له على خيانته(1). على العكس، أظهر لنا كورناي Corneille الحاجة إلى الانتقام الّذي امّحى من قلب شيمان Chimène من بعد أن أحبّت قاتل والدها(2).

(14)

يتلخّص القانون الفيسيولوجيّ، الّذي نجد أنفسنا بموجِبه أمام أَلَمَيْنِ مُتزامِنَيْنِ، في ما يلي: يمحو الألمُ الأقوى الألمَ الأضعف، وذلكم ما يتحقّق تمامًا في مجال المشاعر. لقد جهله الدّبلوماسيّون الألمان عندما عقدوا آمالهم على كراهيّاتنا السّياسيّة. الحقّ أنّها كانت كراهيّات قويّة للغاية، لكنّها زالت موقّتًا أمام الكره الأقوى الذي حملناه للأجنبيّ.

(15)

نادرًا ما تعيش الأهواء معزولة. فالحسد يكون مصحوبًا بالكراهِيّة، والحبّ لا يُمكن أن يوجد من دون الغيرة. والجشع لا ينفصل عن القسوة.

(16)

في المجتمعات الحديثة، الحاجة إلى الرّفاهية، أو على الأقلّ إلى مظاهرها، هي غالبًا أشدّ إلحاحًا من الحاجة إلى ما هو ضروريّ.

(17)

إنّ كائنًا بشريًّا من دون أحكام مسبقة، ومن دون أوهام، ومن دون فضائل، سيكون كائنًا غير اجتماعيّ، بحيث تُشكِّل العزلة ملاذه الوحيد.

(18)

تنجم غالبيّة أحزان الوجود وأفراحه عن الأهميّة التي نعزوها إلى الأشياء، وهي أهميّة لا تتناسب مع قيمتها.

(19)

صحيح أنّ معرفة المنطق العاطفيّ، والصّوفيّ، والجمعيّ، ما زالت معرفة ناقصة، إلّا أنّها تُزوِّدنا، مع ذلك، بمفتاح الظواهر التّاريخيّة التي لا يستطيع المنطق العقلانيّ أن يُفسِّرها.

(1) تتمحور المؤامرة حول تصرّفات ميديا، الأميرة السّابقة لمملكة كولشيس «البربرية»، وزوجها ياسون، وذلك حين وجدت أنّ موقعها في العالم اليونانيّ مهدّد، من بعد أن تركها ياسون من أجل أميرة كورنث اليونانية. وهنا تنتقم ميديا بقتل أطفالها، وقتل زوجته الجديدة، ثم الهرب إلى أثينا لبدء حياة جديدة.

تبدأ القصة بميديا التي ساعدت حبيبها ياسون في الحصول على الذّهب من وطنها، بل وقدّمت تضحيات كثيرة من أجله، فقد قتلت أخاها، وقطّعت جثته، ومن ثمّ ألقت بها في البحر لينشغل والدها الملك بجمع أشلاء الجثة، في حين تهرب هي مع ياسون ليتزوّجا في كورنث ويُنجِبا ثلاثة أطفال. وهناك، حيث بدأ ياسون بالبحث عن تأمين وضعه الاجتماعي، فهو يُعتبر منفيًّا وليس له أي حقوق سياسية أو مدنية، لذا، كان يجب أن يحصل على مواطنة من كورنث، فتزوّج من ابنة كريون ملك كورنث ليؤمِّن مركزه الاجتماعيّ، ويحصل على الثروة والسلطة. ولذلك تغضب ميديا من ياسون الذي ينكر الجميل ويقابل التضحية بالخيانة.

تقرّر ميديا أن تنتقم من ياسون، ولكن بعد أن تتفق مع الملك أيجيوس على أن تعطيه دواء يساعده على الإنجاب، مقابل أن يضمن لها ملجأ عنده بعد تنفيذ جريمتها، والتي قامت بها بالفعل، وذلك بقتل زوجة ياسون، حيث أرسلت لها ثوبًا مسحورًا مع أطفالها الثلاثة حتى لا يشكوا في الأمر، وبمجرد أن ارتدت الثوب اشتعلت فيها النيران وجاء والدها لينقذها فاحترق معها. أما الجزء الثاني من الانتقام فكان أشدّ، لكونها قامت بقتل أطفالها الثلاثة الذين هم أيضًا أطفال ياسون، أطفالها الذين كانوا ثمرة هذا الحب المزيّف. قتلتهم لكي تدمّر مستقبل ياسون، فهو يبني عليهم كلّ أحلامه. فمن الصعب بالنسبة إليها أن تكون ابنة ملك وتضحي بكل هذه الأشياء وفي النهاية تكون المكافأة هي الخيانة.

(2) إشارة إلى مسرحيّة السيّد. يتلخّص الصراع الدراميّ الرئيس في (السيد) في أنّ الفارس الجريء (رودريك) يقتل دفاعًا عن شرف عائلته، عن طريق المبارزة، والد حبيبته (شيمان) الذي أهان والده بفظاظة. وهذا القتل يقيم حاجزًا بين الشابين اللذين يحبّان بعضهما بعضًا حبًّا قويًّا. وهكذا يصبح زواجهما متعذّرًا لأنّ شيمان لا تستطيع أن تتزوج من قاتل أبيها. فضلًا عن ذلك، فهي مطالبة، بحكم القانون نفسه الخاص بالشرف العائليّ، أن تطالب بموت حبيبها. تحاول شيمان التّخلُّص من حبّها لرودريج، وتذهب إلى الملك وتطلب الانتقام لشرف والدها، وتطلب رأس رودريج. ولكنّ الهجوم على المملكة من قبل المورو أعطى لرودريج الفرصة لإثبات جدارته ومكانته وكسب ثقة الملك وعفوه عنه. على الرّغم من حب شيمان الشديد لرودريج، وكونه أصبح بطلاً شعبيًّا، ظلّت شيمان ثابتة على موقفها، وطلبها لرأس رودريج، وحصلت على تصريح من الملك بمبارزة بين رودريج وسونش الذي يحبها أيضًا. ووعدت بأنها ستتزوج الغالب. يفوز دون رودريج في المبارزة، ويطلب يد شيمان من الملك، ويتزوّجان.

الفصل الثّالث القوى الصّوفيّة

(1)

تتميّز الرّوح الصّوفيّة بأنّها تعزو قدرات مُتَخَيَّلة وغامضة إلى عقائد، وطقوس، وتعاويذ، وأشخاص، وشعارات. إنّها أبعد ما تكون عن الإخلاص لألوهيّة بعينها. الواقع أنّ المدافعين عن طائفة من الطوائف السّياسيّة والمجتمعيّة مُثْخَمون بالرّوح الصّوفيّة.

(2)

عندما يعتنق ملايين النّاس بعض الآراء، ويعتنق ملايين آخرون آراء مناقضة تمامًا، يُمكننا أن نكون متأكّدين أنّ الاعتقادات هذه تستند إلى أُسس صوفيّة، أو عاطفيّة، لكنّها لا تستند البتّة إلى أُسس عقلانيّة.

(3)

تمتلك القوى الصّوفيّة قدرة خلّاقة هائلة. فقد أَرسَت دعائم حضارات كبرى، وجعلت روائع الفنّ تنبثق من عَدم، هذه الرّوائع التي ستُعجَب بها الأجيال القادمة دائمًا شريطة ألّا تقضي عليها (أي على هذه الرّوائع) القوانين المستقبليّة.

(4)

خالَ العالمُ الحديثُ نفسه تخلَّص من تأثير القوى الصّوفيّة. مع ذلك لم تكن الإنسانيّة يومًا أكثر خضوعًا لها ممّا هي عليه اليوم. الحقّ أنّ هذه القوى هي أشعلت الحرب في أوروبا.

(5)

تخلق الرّوح الصّوفيّة قوى مُتَخيَّلة، لكنّها ذات تأثير هائل، ويعود السّبب في ذلك إلى الثّقة التي تُوحي بها. الواقع أنّ القوى هذه جعلت النّاس، في بعض الأحيان، يتصرّفون خلافًا لمشاعرهم الأكثر حميميّة، وخلافًا لمصالحهم الأكثر بداهة.

(6)

إنّ المفاهيم ذات النّمط العاطفيّ أو الصّوفيّ تُقبَل جملةً وتفصيلًا، أو تُرفَض جملة وتفصيلًا، لكنّها لا تُبرهَن البتّة.

(7)

لا يملك العقل أيّ سطوة على القوى الصّوفيّة.

(8)

عندما تخترق الرّوح الأكثر فطنةً المجال الصّوفيّ، تفقد ملكاتها التّبصريّة. الواقع أنّ بيان المثقّفين الألمان، الّذي طالعنا فيه علماء مشهورين ينفون البداهة، ويُفسِّرون الحقائق على هَدْيِ أوهامهم فحسب، هو تأكيد جديد لهذا القانون.

(9)

تتساوى جميع الذّكاءات في مجال القوى الصّوفيّة أكثر ممّا تتساوى أيضًا في مجال القوى الشّعوريّة.

(10)

يكفي معتقد صوفيّ {ليؤدّي دوره}، لكنّه يكتسب المزيد من القوّة أيضًا عندما يرتبط بالمصالح الماديّة. ربّما لم يكن المثال الصّوفيّ للهيمنة الألمانيّة كافيًا من أجل جعل الحرب تندلع، من دون الأمل في غزو المقاطعات الغنيّة، ونهبها.

(11)

إذا أرادت ألمانيا أن تُقوِّم حاليًّا نتائج الدّافع الصّوفيّ، الّذي جعلها تندفع باتّجاه غزو العالَم، فسوف تجد أنّها تسبّبت في الموت البائس لملايين النّاس، فضلًا عن خسارة مئة مليار، ناهيك بكراهية عالميّة نمت تجاهها. الحقّ أنّ النّجاح الوحيد الّذي ظفرت به هو ضمّ بضع مقاطعات من المحال الاحتفاظ بها من دون تكبّد نفقات عسكريّة باهظة.

(12)

لا يُعَلِّم درسُ الحقائق الإنسان الذي يقع أسير معتقد أو شعار.

(13)

تنتشر المعتقدات ذات الأصل الصّوفيّ بفعل العدوى الذّهنيّة أو بفعل الإيحاء، لكنّها لا تنتشر البتّة عن طريق الاستدلالات.

(14)

لا تكتسب الحقائق العقليّة الأكثر وثوقًا مكانة في نفوس الشّعوب إلّا بعد أن تكتسيَ شكلًا صوفيًّا.

(15)

إنّ حزبًا سيّاسيًّا أو ثورة لا يُحقّقان انتصارًا باللّجوء إلى الحجج العقليّة. الحقّ أنّهما لا ينتصران إلّا بعد أن يُلهِما أتباعهما إيمانًا صوفيًّا قويًّا للغاية.

(16)

إنّ شعبًا يملك إيمانًا بالنّصر لا يشعر بالجوع، ولا بالبؤس. بيد أنّ مقاومتها الأخلاقيّة تنهار في اليوم الّذي تبدأ بالشكّ في النّجاح.

(17)

إذا استبعدنا من حضارةٍ ما كلّ الكيانات الصّوفيّة التي ترمي إلى إرساء دعائمها، فإنّها ستخسر غالبيّة دوافعها التي تحثّها على العمل.

(18)

لا يوجد في التّاريخ مثال على معتقدات ذات شكل دينيّ اهتزّت من جرّاء المعارك. فبعد قرون من الهزائم، ما زالت الدّيانة الإسلاميّة تملك هالة مخيفة. أمّا وقد اتّخذ حلم الهيمنة الألمانيّ شكلًا دينيًّا، فإنّه سيبقى مصدر صراعات طويلة الأمد لأوروبا.

(19)

لا ينتصر المرء على إيمانٍ قويّ عن طريق الأسلحة الماديّة، بل عن طريق مواجهته بإيمان آخر أكثر قوّة.

في مواجهة الأوهام الصّوفيّة، لا قوّة للمدافع.

الفصل الرّابع القوى الجمعيّة

(1)

يُصبِح شعبٌ من الشّعوب قويًّا للغاية عندما يمتلك مثالًا أعلى قادرًا على أن يُوَلِّد لدى جميع مواطنيه المشاعر نفسها، والأفكار نفسها، ومن ثمّ، الأفعال نفسها. فالفوضى الغارقة في القِدَم التي اختبرها الألمان اختفت عندما أكسبتهم مدرسة بروسيا وثكنتها مثالًا أعلى يكمن في الهيمنة العالميّة.

(2)

عندما يتمّ تدريب شعب ما مُطوَّلًا من أجل بذل جهد جمعيّ، ينتهي الأمر به بأن يُضيف إلى نفسه الفرديّة نفسًا جمعيّة تُهيمن عليه تمامًا. فكلّ مشاعره: الكبرياء، والمجد، والتعطّش للسّلطة تُصبح حينئذ جمعيّة.

(3)

إنّ استبدال العمل الجمعيّ بالعمل الفرديّ لا يرفع مستوى الذّكاء، لكنّه يُزوِّد الشّعوب التي تُنفّذه بقوّة عسكريّة وصناعيّة كبيرة.

(4)

تخضع المشاعر الجمعيّة للقانون نفسه الذي تخضع له المشاعر الفرديّة، ونعني هيمنة هوًى بعينه على جميع الأهواء، بحيث يغدو قويًّا للغاية. فكبرياء الشّعب الألمانيّ تطوّر كثيرًا إلى حدّ جعله يُضحّي بمصلحته البديهيّة في إحلال السّلام الضّروريّ لتطوّر صناعته من أجل طموحه إلى السّيطرة.

(5)

إنَّ خلق مشاعر في نفس الجماهير أمرٌ سهلٌ نسبيًّا، أمّا قمع هذه المشاعر فصعب. فهي بتطوّرِها تُصبِح قوًى لا يُمكن التسيُّد عليها أبدًا.

(6)

مع تطوّر الحضارة الحاليّ، تبدو كُلّ حضارة مَقُودة إلى الانقسام إلى تجمّعات صغيرة تمتلك مصالح متشابهة، ويقودها أفراد أقوياء.

(7)

في المجتمعات الجديدة الآخذة في التشكُّل سرعان ما يُسحق الفرد المعزول. فهو لن يكون قادرًا على جعلها تزدهر إلّا من خلال انضمامه إلى مجموعات تمتلك مصالح مشتركة.

(8)

في ما يتعلّق بالمشاعر، تتفوّق النّفْسُ الجمعيّة لأيّ شعب على النّفوس الفرديّة. في ما يتعلّق بالذّكاء، على العكس، تتفوّق النّفوس الفرديّة كثيرًا على النّفس الجمعيّة.

(9)

تنزع الشّخصيّات العظيمة المستقلّة إلى الاختفاء شيئًا فشيئًا، فالكائن الجمعيّ يحلّ تدريجيًّا محلّ الكائن الفرديّ.

(10)

لدى الشّعوب البدائيّة، التي لم تتجاوز بشكل ملحوظ مرحلة القبيلة والعشيرة، لا يمتلك الأفراد بعد نفسًا شخصيّة مُتَشَكِّلة بوضوح، لكنّها تمتلك نفسًا جمعيّة فحسب. تُعيد النّزعة العسكريّة والتطوّر الصّناعيّ بعض الأمم إلى المرحلة الجمعيّة للعصور الأولى.

(11)

أن ينضمّ فردٌ إلى جماعة يعني أن يزيد قوّته الاجتماعيّة، لكنّه يفقد شخصيّته.

(12)

يُفضِّل اليونانيّون العظمة الفرديّة على العظمة الجمعيّة. أمّا الرّومان فيكتفون بالتفوّق الجمعيّ.

(13)

توصّل الرّومان، الذين كانوا آنذاك نصف برابرة، إلى استعباد اليونان التي امتلكت بالفعل جحفلًا من المفكّرين والفنّانين الخالدين، ويعود السّبب في ذلك إلى الخصال الجمعيّة المتعلّقة بالانضباط والإصرار اللّذين احتقرهما المهزومون بعض الاحتقار.

(14)

تنزع المعارك إلى أن تُصبِح جمعيّة، فالتّشكيلات والتّكتيكات التي يضعها قائد عظيم لن تكون كافية اليوم لكي تُقرِّر في غضون بضع ساعات نجاح حملة عسكريّة. يُمثِّل النّصر الحديث جمعًا لآلاف الطّاقات.

(15)

ينبغي للأمم أن تتصدّى دائمًا لنوبات الهذيان الجمعيّ لشعب من الشّعوب، لا سيّما عندما يُسنِد تعطّشه إلى الغزو إلى اعتقاد مفاده إنجاز مهمّة إلهيّة. فباسم تصوّرات مماثلة دمّرَ العربُ والأتراكُ، قديمًا، العالمَ. بمقدور المدفع وحده أن يتصدّى لأوهام كهذه.

(16)

تنتشر غالبيّة المشاعر أو تجمّعات المشاعر مثل التّفاؤل، والتّشاؤم، والشّجاعة، عن طريق العدوى الذّهنيّة، لكنّ الانتشار يكون أسهل بكثير عندما يأخذ الشّكل الجمعيّ.

(17)

يُمكننا أن نطلب من النّفس الجمعيّة تضحيات من المحال أن نحصل عليها من النّفس الفرديّة.

(18)

يُمكنُ تحمّلُ المعاناة الجمعيّة بسهولة أكبر من تحمّل المعاناة الفرديّة.

(19)

كانت المشاعر الجمعيّة، في أثناء الحرب، الأكثرَ فعاليّة. إذا أمكنها، بعد السِّلم، أن تُحافظ على هيمنتها، فإنّها ستُخفّف من غلوّ التّأثيرات الفرديّة التي غالبًا ما تكون أنانيّة للغاية.

(20)

إنّ الإصرار، والتّضامن، والانضباط خصالُ شخصيّةٍ تُعطي الشّعوبَ دائمًا قوّة كبيرة، وما من خصال ذهنيّة يُمكن أن تحلّ محلّها.

(21)

يُمثِّل العصر الحديث انتصار الرداءة الجمعيّة.

الفصل الخامس القوى الفكريّة

(1)

يمتلك العقل، بوصفه مُوجِدَ كلّ الاكتشافات التي غيّرت وجود النّاس، سلطة كبيرة جدًّا. ومع ذلك لم تكن هذه السّلطة كافية لكي تُحدِّد سلوك الشّعوب.

(2)

يبني المنطقُ العقلانيُّ العلمَ، لكنّه يلعب دورًا ضعيفًا في نشأة التّاريخ.

(3)

الواقع أنّ المعتقدات القادرة على زعزعة العالَم لا يُشيّدها العقلُ، بل غالبًا ما يتعارض معها.

(4)

رأت ألمانيا، التي استرشدت بالعقل وحسب، أنّه من دون معارك، واستنادًا إلى اتّساع قوّة صناعيّة تعود إلى ثروتها من الفحم الحجريّ، وإلى تربيتها التّقنيّة، بإمكانها أن تفرض هيمنتها. لقد استحوذ عليها حلمُها ذو الطّموح الصوفيّ، لكنّها لم تَعِشْه البتّة.

(5)

ينتهي الأمر سريعًا بالحكّام الّذين يدّعون امتلاك المنطق العقلانيّ مرشدًا وحيدًا لهم إلى التّفكّك، وعدم الانسجام.

(6)

في السّياسة، تنزع العقلانيّة، على وجه الخصوص، إلى إلباس الشّهوات لبوسًا مقبولًا تفتقرُ إليه تمامًا.

(7)

لعلّ أكثرَ مصادر الخطأ تواترًا ادّعاء تفسير الأفعال، التي تُمليها التّأثيرات العاطفيّة أو الصّوفيّة، عن طريق العقل.

(8)

ينزع العقلُ إلى تبرير السّلوك أكثر ممّا ينزع إلى قيادته.

(9)

يُوجد خلف الأفعال، التي يخال العقلُ أنّه يقودها، سلاحُ الأسلاف المذهِل الّذي يُحدّد تلك الأفعال.

(10)

الحقّ أنّ الإنسان الّذي يدّعي أنّه لا يعمل إلّا على هَدْيِ العقل، يحكم على نفسه بعدم العمل إلّا في ما ندر.

(11)

الحدس يجعلنا نُفكّر، والإرادة تجعلنا نعمل، أمّا العقل فينزع على وجه الخصوص إلى التّفسير.

(12)

تُفضي الأفكارُ المتبلوِرة بشكل سيّئ إلى قرارات ضعيفة، وإلى أعمالٍ متواضعة.

(13)

من الجليّ أنّ العالَم يُقاد عن طريق العنصر الغريزيّ أكثر ممّا يُقاد عن طريق العنصر العقليّ. لكن على الرّغم من أنّ الفلاسفة الألمان يعدّون العنصر الغريزيّ المرشِد الأفضل للشّعوب، فإنّ الفلاسفة اللاتينيّين أقرّوا بأنّ تطوّر الحضارة يكمن في إخضاع العنصر الغريزيّ تدريجيًّا للعنصر العقليّ.

(14)

العنصر الغريزيّ مبدأ حياة، لكنّه ليس مبدأ حضارة.

(15)

غالبًا ما ينزع الذّكاء إلى شلّ الفعل، فمن غير المجدي أن يملك أيّ شعبٍ ذكاءً أكثر ممّا يملك شخصيّة. كان البيزنطيّون يتناقشون بشكل جيّد للغاية، لكنّهم نادرًا ما كانوا يفعلون، في حين أنّ محمّدًا كان بالفعل خلفَ جدرانهم.

(16)

في مجال التوقّع، يتفوّق الحكم على الذّكاء. يُظهِر الذّكاء كلّ الاحتمالات التي يُمكن أن تحدث. في حين أنّ الحكم يُميّزُ من بينها تلك التي تملك أفضل فرصة للتّحقّق.

(17)

القياسُ، بما هو أصل مُتكرِّر للأحكام النّهائيّة، يُعَدُّ مصدرًا للأخطاء المتكرِّرة، على الرّغم من أنّه ينبغي له أن يقتصر على وضع فرضيّات من أجل التحقّق منها. والحال أنّ قادةَ هيئة أركاننا راكموا عددًا كبيرًا من الأخطاء، ورفضوا مرارًا مضاعفة عدد المدافع والذّخائر، لا لشيء إلّا لأنّهم ساروا على هَدْيِ أَقْيِسَةٍ سطحيّة.

(18)

إذا كنّا لا نفهم بعضنا بعضًا في النّقاشات، فذلك لأنّ عقولًا مختلفة تستخدم الكلمات نفسها من أجل التّعبير عن أفكار مختلفة.

(19)

الأشخاص الّذين اعتادوا أن ينتقدوا كلّ شيء هم، بصفة عامّة، أولئك الّذين يملكون أقلّ قدْرٍ من التّفكير النّقديّ.

(20)

التّفكير النّقديّ هو في الوقت نفسه خالقُ التّطوّر، ومُوَلِّد التّقاعس.

(21)

وَجب قديمًا أن يُبنَى مَعبَدٌ للمنطق السّليم وليس للعقل. فقد وُهِبَ كثيرٌ من النّاس عقلًا، لكنّ قلّة قليلة الّتي وُهِبَت منطقًا سليمًا.

(22)

الواقع أنّ كثرة الكلمات غير المجدية أَمارَةٌ مؤكَّدَةٌ من أَمارات الدونيّة العقليّة.

(23)

يصنع الرّجالُ العباقرةُ العظَمة الفكريّة لأمّة من الأمم، لكنّهم نادرًا ما يصنعون قوّتها.

(24)

يُعِدُّ رجالُ الفكرِ رجالَ الفعل، لكنّهم لا يحلّون محلَّهم أبدًا.

(25)

الحقّ أنّ فكرَ رجلٍ عظيم لا ينتشر ويترسَّخ إلّا بعد وفاته.

الفصل السّادس تفسيرات التّاريخ

(1)

ينطوي التّاريخ على شهادات، ومبادئ، وطرائق. ينبغي لنا أن نتصدّى للشّهادات، وأن نشكّ في المبادئ، وألّا نقبل سوى الطّرائق.

(2)

ينبغي لمفهوم النّسبة المئويّة أن يكون في أساس الملاحظات السّيكولوجيّة والاجتماعيّة، فالوقائع المعزولة لا تُثبِت شيئًا، فما تجدر معرفته هي درجة تواترها النّسبيّ فحسب.

(3)

تُظهِر قصّة الحرب، كما يكتبها الألمان، بأيّ سهولةٍ يُحَرِّفُ الكتّابُ الوقائع عندما تتعارض مع معتقداتهم أو مبادئهم.

(4)

ينسى مؤرِّخو التصوّر الماديّ للتّاريخ، عندما يعزون إلى المصالح الاقتصاديّة دورًا مهمًّا، أنّ القوى السيكولوجيّة تُطيح بهذه المصالح بسهولة. ومن بين تلك القوى، تبرز الدّوافع الصّوفيّة دائمًا بوصفها أكثر اقتدارًا.

(5)

من شأنِ رؤية دقيقة لكنْ مُجَزّأة لواقعةٍ ما أن تقود إلى تفسيرات غير دقيقة، منذ اللّحظة التي نُطبّقها فيها على جزء آخر من الواقعة نفسها.

(6)

يظلّ التّاريخُ محلَّ شكٍّ كبير لأنّه يتألّف بخاصّةٍ من رؤىً مُجَزّأةٍ يجري تعميمُها.

(7)

إنّ العنصر الأكثر أمانًا الّذي ينطوي عليه غالبًا أيُّ كتابِ تاريخٍ ليس قصّة الحوادث، بل ذهنيّة الكاتب الّذي يرويها.

(8)

الأجيال التي تختلقُ تاريخَ حقبةٍ ما لا تُحسِنُ كتابتُه البتّة. فالأحياء ليسوا حياديّين بعض الشّيء إلّا تجاه الموتى.

(9)

بصفة عامّة، ينظر المؤرِّخون إلى الحوادث الماضية انطلاقًا من أفكار الزّمن الّذي يعيشون فيه. لذلك يبدو النّاس والمعتقدات الشّعبيّة في حقبةٍ ما بغيضين في حقبةٍ أخرى. فالبابا ألكسندر السّادس، وسيزار بورجيا كَانَا وَدودَيْنِ في نَظر معاصريهما. لم يُصبِح مكيافلّلي مكروهًا إلّا بعد وفاته. أثار القديس بارثولوميو حماسة كبيرة في دول مختلفة، وصُكَّت ميداليّات كثيرة إحياءً لذكراه. أمّا البابا فنسخَ تفاصيل المذبحة على جدران الفاتيكان، وما زال بإمكاننا أن نراها حتّى الآن.

(10)

تسمح النّصوص، والميداليّات، والآثار ببناء هيكل الماضي العظميّ من جديد، لكنْ مَن لا يعرف كيف يُحدِّد المشاعر والأفكار التي تُسْتَمَدُّ منه، لا يعرف شيئًا عن التّاريخ.

(11)

الحاضرُ، بوصفه خلقًا للماضي، هو الّذي يُوَلِّد المستقبل. غالبًا ما تسمح لنا دراسة التغيّراتِ المَطويّةِ بتوقُّع الحوادث المستقبليّة. الغدُ هو تفتُّح اليوم والأمس.

(12)

لا تُعلِّمنا أيُّ حقيقةٍ تاريخيّةٍ شيئًا إذا كانت مُنفَصِلةً عن أصلِها ومَنْشَئِها.

الفصل السّابع الشّروحاتُ والأسبابُ

(1)

لا تُوجَدُ في التّاريخِ أسبابٌ بسيطة. كلُّ سببٍ مَحُوطٌ بموكِبٍ من العناصر غير المرئيّة. وهذه العناصرُ أكثرُ فعاليّة من الأسباب المرئيّة المباشرة.

(2)

إحدى خصائص الذّهنيّة البدائيّة عَزْوُ الأسبابِ البسيطةِ إلى الظّواهر.

(3)

طالما شَوَّهَ التّفسيرُ البسيطُ للأسبابِ التّاريخَ. فالحوادث الكبرى، من مثل الحرب العالميّة، نادرًا ما وجدت أصلها في إرادة رجلٍ واحد. فمصادرها عميقة، وبعيدة، ومُتغيِّرة. والحال أنّ قرارَ أيِّ حاكمٍ لا يُمكن أن يدخل حيّز التّنفيذ إلّا بعد تراكمه البطيء.

(4)

لا يظهر تعقُّدُ الأسبابِ الشّديدُ، وصعوبةُ ربطها بالآثار المُلاحَظَة، واستحالة شرح الأصول الحقيقيّة للظّاهرة الأكثر بساطة، كسقوط حجر على سبيل المثال، إلّا للعقول المتفوِّقة.

(5)

في نشأة الظّواهر التّاريخيّة، تُجْمَعُ الأسباب وفق المتتالية الحسابيّة(3)، ونتائجها وفق المتتالية الهندسيّة(4). وعليه، يُمكنُ أسبابٌ بسيطة جدًّا، في بعض الأحيان، أن تُفضي إلى نتائج كبيرة.

(6)

تَظهرُ الحربُ العالميّة، منظورًا إليها من وجهة نظر العقل المحض، في ولادتها، وفي أثناء تطوّرها، بوصفها فوضى أبعد ما تكون عن الاحتمال والتّصديق. لكنّها ستُظهِر للمؤرِّخين الدّورَ الضّعيفَ الّذي يلعبه العقل في أفعال الشّعوب، ذلك بأنّ المؤرّخين هؤلاء ما زالوا يُشكّكون في هذا الأمر.

(7)

لن يكون بمقدورنا أن نتبيّن أصول الحرب التي فرضتها ألمانيا ما لم نقرأ دراسات فلاسفتها، ومؤرّخيها، واقتصاديّيها منذ نصف قرن. الواقع أنّ استنتاجاتها تُلخَّصُ بوضوح في التّصريح الحديث هذا لأستاذ ألمانيّ: «تعي ألمانيا جيّدًا حقوقها وواجباتها، وتعتزمُ أن تقودَ العالَم».

(8)

لا يكمنُ دورُ الفيلسوفِ في البحث عن القيمة العقلانيّة للدّوافع الّتي تُحَرِّك النّاس، بل يكمن في البحث عن التّأثير الّذي تمارسه هذه الدّوافع.

(9)

ينطلق العالِمُ والجاهلُ، في تفسيراتهما، من جُملة فرضيّات. لكن على الرّغم من أنّ الفرضيّة، في نظر العالِم، لا تعدو كونها افتراضًا بسيطًا يبقى موقّتًا إلى حين التّحقّق منه، فإنّها تُشكِّلُ يقينًا للجاهل.

(10)

تؤخِّرُ الفرضيّةُ، الّتي تُقْبَلُ من دون مراجعة وتفحُّص، اكتشافَ الحقيقة لفترةٍ طويلة.

(3) في الرياضيات، المتتالية الحسابية أو المتتابعة الحسابية (بالإنجليزية: Arithmetic progression) هي متتالية من الأعداد حيث يكون الفرق بين أيّ حدّين متتالين ثابتًا. على سبيل المثال فإن 3، 5، 7، 9، 11، 13... هي متتالية حسابية لها أساس يساوي 2.

(4) في الرياضيات، المتتالية الهندسيّة هي متتالية عدديّة كلّ حدّ من حدودها، بعد الحدّ الأوّل، يُحصل عليه بضرب الحدّ الذي قبله في عدد ثابت غير منعدم يدعى قدر النسبة (ويعرف كذلك بالأساس والنسبة المشتركة).

الفصل الثّامن اللا مُتَوقَّعُ في التّاريخ

(1)

تبدو الإرادةُ المُظْلِمة للأشياء أحيانًا مُتفوِّقةً على إرادة النّاس، ومُضِلَّةً لتوقّعاتهم. عندما توقّفتِ الحرب بين فرنسا وإنجلترا في عام 1815، كانت هاتان الدّولتانِ قد تقاتلتا لمدّة ستّين عامًا. كاد الصّراع يتجدّد بينهما في حادثة فاشودة(5). وعليه، كيف كان يُمكن التّخمينُ أنّ الأمّتين العظيمتين هاتين ستُصبحانِ حليفَتين؟

(2)

طالما كانت الحوادث اللا متوقعة، في أثناء الحرب، أكثر بكثير من الحوادث المتوقّعة. فما من أحدٍ، على سبيل المثال، كان قادرًا على توقّع مُدّتها. لم يكن بإمكاننا أيضًا أن نُخَمِّنَ كثيرًا تراكمَ الأخطاء السّيكولوجيّة الّذي أَلّب كلَّ شعوب العالَم تقريبًا على ألمانيا، على الرّغم من رغبتها في الحفاظ على حياديّةٍ تتوافقُ ومصالحَها.

(3)

تطولُ لائحة الحوادث التي وقعت خلافًا لكلّ التّوقعات. فما من أحدٍ توقّع هزيمة الإمبراطوريّة الروسيّة على يد الإمبراطوريّة اليابانيّة الصّغيرة، وما من أحد كان يستطيع أن يُخمِّن أنّ بلجيكا الضّعيفة ستقف في وجه الإمبراطوريّة الألمانيّة العظمى. وما من أحد كان قادرًا على التكهّن بأنّ إنجلترا وأميركا، اللتين كانتا تفتقران إلى الجيوش، واللتين كانتا مناهضتين النّزعة العسكريّة، ستُشكّلان قوًى عسكريّة من الدّرجة الأولى.

(4)

بعد الانسحاب من معركة شارلوا(6) Charleroi، لم يكن بإمكانِ أيّ شخص يُفكِّر منطقيًّا انطلاقًا من معطيات السّيكولوجيا، والاستراتيجيا، والتّاريخ، أن يتوقّع أن يعودَ جيشٌ مُنسحِبٌ فجأةً، وأن يضعَ حدًّا لاندفاع غزاةٍ مُنتَصِرين.

(5)

يُعَدُّ حدثٌ ما غيرَ مُتوقّع عندما يكون كلّ احتمالٍ من الاحتمالات التي يتوقّف عليها يتمتّع بفُرَص تحقّق شبه متساوية. يعترف الألمان بأنّ مَدَّ أجل الحرب ما كان ليكون مُمكنًا لهم لو

لم يغزو Bassin de Briey، في بدايات الحرب، حيث كان الدّفاعُ عنها سهلًا. ولم يكن بإمكان الحلفاء أن يستمرّوا في النّضال، لو منعت أميركا، كما كان الألمان يأملون، تصدير الحديد الّذي كان ينقصنا. بطبيعة الحال، تفلِتُ حوادثُ كهذه من كلّ التوقّعات.

(6)

سيتعذّر على الدّوام فهم لماذا لم تَتبيّن ألمانيا مصلحتها الكبرى في عدم إرغام أميركا على إعلان الحرب ضدّها. ها هو كلّ ذَهَبِ الحلفاء يُنقَل تدريجيًّا إلى أميركا، إذ لم يعد بإمكانهم، بعد نفاد ائتمانهم، الحصول على الفولاذ والموادّ الأوليّة التي كانت الولايات المتّحدة وحدها تُزوّدهم به.

(7)

كانت لألمانيا مصلحة في الهجوم على منافستها التي تخشاها ـ وأعني إنجلترا ـ وفي اجتياح فرنسا من أجل نهب ثرواتها، لكن عبثًا نبحث عمّا كان هدفها من غزو روسيا، ذلك بأنّ صناعة هذه الأخيرة، وتجارتها، ومصرفها كانت بين أيديها، إلى حدٍّ عَدَّ معه كثيرٌ من الألمان هذا البلدَ مستعمرةً ألمانيّة. يستحيل علينا فهم حدث كهذا ما دمنا نجهل أسبابه الصّوفيّة.

(8)

توقَّع الألمان كثيرًا من الأشياء قبل أن يُعلنوا الحرب، باستثناء الأشياء الأكثر أهمّيّة، من مثل مقاومة الفرنسيّين، وتدخّل كلّ من إنجلترا، وإيطاليا، وأميركا.

(5) حادثة فاشودة وقعت عام 1898 في ذورة التنافس الاستعماري الأوروبي بين المملكة المتحدة وفرنسا في شرق إفريقيا. كادت الحادثة أن تؤدي إلى نشوب حرب بين فرنسا والمملكة المتحدة، لكنها انتهت بالانتصار الدبلوماسي للمملكة المتحدة. ونتج عنها ظهور ما يسمى متلازمة فاشودة في السياسة الخارجيّة الفرنسيّة. ففي عام 1898 كان تسابق الجيشين البريطانيّ والفرنسيّ، لتأكيد ادعاء الدولتين ملكيّتهما بلاد السودان والساحل. فقد دخل ج. ب. مارشان الفرنسي جنوب السودان، يقود حملة من الجنود السنغاليين، واستولى على «فاشودة» في يوليو 1898، فسارع كتشنر سِردار الجيش المصري في السودان لرده، وكادت تنشب الحرب بين الدولتين لولا أن سُوّيت المشكلة بفضل الجهود الدبلوماسية. النزاع سُوِّي بمعاهدة السودان 1899. وانسحب مارشان في 3 نوفمبر 1898. وتخلت فرنسا عن دعاواها في أعالي النيل. وبعد الاتفاق الودي في 1904 بين بريطانيا وفرنسا تغير اسم البلدة من فاشودة إلى كودوك لمحو ذكرى الصدام من الذاكرة. (انظر: ويكيبيديا).

(6) حدثت معركة شارلروا (بالفرنسية: Bataille de Charleroi)، أو معركة سامبر، في 21 آب 1914، بين الجيش الفرنسيّ الخامس والجيشين الألمانيين الثاني والثالث، أثناء معركة الحدود. خطّط الفرنسيون من أجل شن هجوم عبر نهر سامبر، عندما هاجم الألمان أولًا، وأجبروا الفرنسيين على مغادرة النهر وكادوا أن يقطعوا التراجع الفرنسي عن طريق عبور ميوز حول دينانت والالتفاف على الجهة اليمنى الفرنسية. أنقذ الفرنسيون الوضع عن طريق شنّ هجوم مضاد على دينانت، وإعادة توجيه الجيش الثالث إلى الشمال الغربي من أجل دعم الجيش الثاني بدلًا من الجنوب الغربي. (انظر ويكيبيديا).

الكتاب الثّاني في أثناء المعارك

الفصل الأوّل النّشأة السّيكولوجيّة للنّزاعات الكبرى

(1)

تملِك الأسبابُ المباشرة لأيِّ حربٍ أهميّة ثانويّة. ينبغي الغوصُ في أسبابها البعيدة من أجل اكتشاف نشأتها.

(2)

بشكلٍ عام، لعِبَتِ العناصرُ العقليّة دورًا قليلَ الأهميّة في أصل النّزاعات التي ملأت التّاريخ.

(3)

يقتصر دورُ العقل فقط على خدمة القوى العاطفيّة، أو الصّوفيّة، أو المجتمعيّة التي تُعَدّ المحرِّك الأساسيّ للنّزاعات الكبرى.

(4)

المشاعرُ الأكثر فعاليّة في نشأة الحروب هي: الكبرياء، والطّموح، والارتياب، والكره.

(5)

كان الارتياب هو الشّعورَ المسيطِرَ ــ أكثر من الكراهية ــ منذ خمسين عامًا على العلاقات بين الشّعوب الأوروبيّة. لقد قادها إلى المبالغة في التّسلُّح، الأمر الّذي جعل الحربَ حتميّة.

(6)

يُمكننا أن نعزوَ الصّراعات الكبرى في التّاريخ إلى عددٍ قليل من الأسباب: 1 ــ أسباب بيولوجيّة: من مثل دوافع الجوع التي أَفضت في الماضي إلى الغزوات الألمانيّة الّتي دمَّرت الحضارة الرّومانيّة. 2 ــ أسباب عاطفيّة: من مثل الغيرة، والكراهية، والطَّمع، وبخاصّة الطّموح. فحَرْبا المائة العام وسبع السّنوات كانتَا حَرْبَي طموح. 3 ــ أسباب صوفيّة: من مثل التّأثيرات المُفْتَرَضة للقوى العُليَا التي تأمر أتباعها بغزو العالَم. الحقّ أنّها هي التي أفضت إلى الغزوات الإسلاميّة، والحملات الصّليبيّة، والحروب الدّينيّة، وحرب

الثّلاثين العام، والحرب الحاليّة. 4 ـ أسباب اقتصاديّة: من مثل الإفراط في الإنتاج الصّناعيّ الّذي وَلَّدَ منافسات تجاريّة.

(7)

تضعُ السّلطةُ العسكريّةُ نفسها في خدمة التّأثيرات البيولوجيّة، والعاطفيّة، والصّوفيّة، والاقتصاديّة على حدٍّ سواء.

(8)

نجحَ القادةُ الألمان في جعل الحربِ حربًا شعبيّةً، إذ عزوا سببَها إلى ضرورة الاحتراز من الغزو الرّوسيّ الّذي يُخشى منذ زمن بعيد، ومن ثمّ، إلى ضرورة الاحتراز من رغبة الفرنسيّين الـمُفْتَرَضة في الانتقام، وختامًا، إلى ضرورة الاحتراز من التّهديد الذي تمارسه منافسةُ إنجلترا الاقتصاديّةُ. الحقّ أنّ الخشية من الغزو الرّوسيّ كانت السّبب الرّئيسيّ وراء التّأييد الجماعيّ للألمان. وحدهم قادتهم من عرفوا كِفايةً مدى تفكّك روسيا، وأيقنوا أنّها لا تُشكِّل تهديدًا.

(9)

من النّادر أن تُقاتل الشّعوب بضراوة من أجل مصالِحَ ماديّة محض. الحقّ أنّ أعظم الشّعوب المتصارِعة اليوم ـ الولايات المتّحدة تحديدًا ـ تُحارِب من أجل مبادئ.

الفصل الثّاني العناصرُ السّيكولوجيّةُ للمعارك

(1)

يتكوَّن تاريخ الشّعوب على وجه الخصوص من قصّة معاركها. أمّا حقبات السّلم فلا تعدو كونها حوادث عابرة.

(2)

تستخدِم الحروب أسلحةً ماديّة، لكنّ محرّكاتها الأساسيّة هي القوى السّيكولوجيّة. فكلّ مدفعٍ، وكلّ حَربَةٍ مَحُوطان بغلافٍ من القوى غير المرئيّة التي تُوَجِّه مشاعر المقاتلين وأفعالهم.

(3)

قال نابليون للقدّيسة هيلينا إنّ مصير بلد ما يتوقّف أحيانًا على يومٍ واحد. فالتّاريخُ يُثبِت هذا الزَّعم، لكنّه يُظهر أيضًا أنّ التّحضير لهذا اليوم يستغرق بشكل عام سنوات كثيرة.

(4)

لا يُوجد جيشٌ مقتَدِرٌ من دون مثال أعلى يكون مرشدًا له. نذكر على سبيل المثال: محبّة روما في نفوس فيالقها، والرّغبة في الحصول على الغنائم لدى رعاة العصور الوسطى، ولدى الألمان على مرّ العصور، وحبّ المجد لدى جنود نابليون، وديانة الواجب لدى المتطوّعين الإنجليز، وحبّ الوطن لدى الفرنسيّين الحاليّين.

(5)

تغيَّرَت دوافعُ عمل الجيوش على مرّ العصور. فالأمل بالحصول على الغنيمة، والخوف من العقاب هما العاملان السّيكولوجيّان اللّذان استخدمهما القادة السّابقون، بيد أنّهما لا يملكان اليوم أيّ تأثير إلّا في الأعراق التي لم تمحُ الحضارةُ بعد غرائزها البدائيّة.

(6)

تنزع الأعمالَ الجماعيّة، التي كان دورها بالفعل كبيرًا جدًّا، إلى أن تمارس تأثيرًا ملحوظًا في المعارك الحديثة. الواقع أنّ معركة المارن معركةٌ جماعيّة.

(7)

تتأتّى قوّةُ جيشٍ، على وجه الخصوص، من كون الرّجل الجماهيريّ يفقد أنانيّته الفرديّة من أجل اكتساب أنانيّة جماعيّة.

(8)

تُمثِّلُ العدوى الذّهنيّة، بما هي عدوى كليّة القدرة في الحياة الاجتماعيّة، أُسًّا من أكثر أسسِ سلوك الجنديّ أمانًا. الحقّ أنّها الموجد الحقيقيّ لتضامن الجيش وتماسكه.

(9)

تتعاظم قوّة مقاومة شعبٍ بشكل كبير عندما يكون عدوُّه مُدمِّرًا لا يعرف الرّحمة، وعندما يُهَدِّد الضّعفاء بعبوديّة لا خلاص منها.

(10)

الواقع أنّ عدم الاعتراف بقوانين ومعاهدات في أيّ حربٍ ميزة موقّتة للغازي، لكنّها ميزة تخلق في المهزومين تراكمَ كراهيات لا يُمكن أيُّ منتصِرٍ أن يتصدّى لها.

(11)

تُثبِتُ التّجربةُ أنّ الجيوش، في حروب الخنادق الحديثة، تُستنفَد ببطء بسبب الدّفاع وحده. يُؤدّي استنفاده التامّ إلى الهزيمة.

(12)

لا تعني الهزيمة شيئًا إن لم يشعر المهزوم باليأس. لقد أشرنا وبحقّ إلى أنّه ما من شعبٍ عانى وطأة الهزائم أكثر من الرّومان. مع ذلك، استند الرّومان إلى ثبات إرادتهم، وانتهى بهم الأمر إلى أن انتصروا.

(13)

الحرب هي، على وجه الخصوص، صراع إرادات.

(14)

في المعارك طويلة الأجل، وغير الحاسمة، حيث يخلق تكافؤ القوى تكافؤًا في الإنهاك، يتوقّف النّجاحُ على الطَّرف الّذي يعرف كيف يمدُّ أجل الصّراع بضع لحظات أكثر من خصمه.

(15)

كشفتِ الحرب أنّ التّوقّع والتّجرّؤ هما الخاصيّتان اللتان كانتا تُعْوِزان الجنرالات العاديّيّن.

الفصل الثّالث الرّوحُ الوطنيّة وفكرة الوطن

(1)

تحكم روحُ أيِّ عرقٍ مصيرَه. ينبغي تَعَاقبُ أجيال كثيرة من أجل خلق الرّوح هذه، وأحيانًا تكفي سنوات قليلة من أجل خسارتها.

(2)

تختلف الرّوح الجمعيّة لأيِّ جمهورٍ عن الرّوح الجمعيّة لأيِّ عرقٍ اختلافًا كبيرًا. فالأولى موقّتة أمّا الثّانية فمستمرّة.

(3)

لا تعدو الأمم الكبرى الحديثة كونَها تجميعًا لأعراقٍ مختلفة، أعراقٍ توحَّدت روحُها عبر ماضٍ طويل من الحياة المشتركة، فضلًا عن مصالح، ومعتقدات، ومشاعر متماثلة.

(4)

يعود السّبب في أنّ الأعراق تأثّرت تأثُّرًا مختلفًا بالموضوعات نفسها إلى بنيتها السّيكولوجيّة المختلفة. بعبارة أخرى، يتعذّر على الأعراق أن تتوصّل إلى الأدلّة عينها، ومن ثمّ، يتعذّر عليها أن تتفاهم بعضها مع بعض ما دامت تحسّ وتتصرّف بطرق مختلفة.

(5)

ما يُميِّزُ المتحضِّر من البربريّ هو تفوّق روحه السّلفيّة. ليس بمقدور التّربية أن تجعلهما مُتساويَين.

(6)

العرق هو الحجر الأساس الّذي يستند إليه توازنُ الأمم. ذلك بأنّه يُمثِّل ما هو أكثر ثباتًا في حياة أيّ شعب. الواقع أنّ التهجينات المتكرِّرة هي الّتي تستطيع أن تُفَكِّكه، لأنّ تأثير الأجانب خطير للغاية. دَمَّرت تهجينات كهذه، قديمًا، عظمة روما. لقد خسرت قوّتها بخسارتها روحها.

(7)

تُمثِّل التّراثات الوطنيّة مبدأً من أهم العناصر المـُثَبِّتة لروح الشّعوب. من دونها، ينبغي لكلّ أمّة أن تُعاود البحث بصعوبة عن مُرشدين يُوجّهون سلوكها.

(8)

يدعمُ تلاشي الرّوح الفرديّة الموقّتة في روح العرق المستمرّة، تحت تأثير تهديد وطنيّ كبير، يدعم بشكل ملحوظ وحدة الشّعب الذّهنيّة.

(9)

عندما تحلّ مصلحة العرق برمّتها، لدى أيّ أمّة، محلّ غريزة البقاء الفرديّة، تُصبِح مقاومةُ هذا الشّعبِ أعداءَه مقاومةً لا متناهية.

(10)

الوطنيّةُ هي التّجلّي الأقوى لروح أيّ عرق، فهي تُمثِّل غريزة بقاء جمعيّة تحلّ مباشرة، في حال وجود تهديد وطنيّ، محلّ غيرزة البقاء الفرديّة.

(11)

يبقى الوطن تجريدًا غامضًا بعض الشّيء في أثناء السِّلم. تظهر قوّته فقط عندما يكون مُهَدَّدًا. بعبارة أوضح، عندما يتحرّر الوطنُ من الغطاء الصّوفيّ الّذي يلفّه، يُصبِح حقيقةً قويّة بما يكفي لكي تُحوِّل سلوكَ أيّ شعب.

(12)

لا يتكوّن الوطن من الأرض التي نعيش فيها وحسب، بل يتكوّن كذلك من ظلال الأجداد الّذين ما زلوا يعيشون فينا، ويُبَلْوِرونَ مصيرنا.

(13)

يعني الدّفاعُ عن الوطن لأيِّ شعبٍ، في الوقت عينه، الدّفاعَ عن ماضيه، وعن حاضره، وعن مستقبله.

(14)

تكتسب الوطنيّة كلّ قيمتها عندما تُصبِح صوفيّة. الحقّ أنّ كلّ ما من شأنه أن يُصبِح وطنيًّا عن طريق العقل وحسب، لا يُصبِح كذلك إلّا في ما نَدَر.

(15)

الشّعب الّذي تضعف عنده فكرة الوطن الصّوفيّة يختفي من التّاريخ حتّى من دون أن يملك الوقت ليمرّ بكلّ مراحل الانحطاط.

(16)

الحروب هي أكثر العوامل أمانًا في ترسيخ الرّوح الوطنيّة.

(17)

بلغت الولايات المتّحدة ذروة القوّة الصّناعيّة والتّجاريّة، لكنّ روحها الوطنيّة لم تستقرّ كثيرًا بعد. الحرب ستُثبّتها حتمًا.

(18)

أثبتت المؤامرات التي حاكها الألمان في أميركا صعوبةَ أن يمتصَّ أيُّ شعبٍ العناصر الأجنبيّة. إذا أمكن الأحياءُ أن يَصهروا لغتهم، وأخلاقهم، ومصالحهم، فإنّ الأمواتَ، الّذين يُساعدونهم، يظلّون مُتَمرّدين على هذا الانصهار. الحقّ أنّنا لا نُغيِّر العرقَ بتغيير التصرّفات.

(19)

تملك روحُ العرقِ حدودًا لا يُمكن تجاوزها.

(20)

لا يُدافِع الوطن عن نفسه إلّا بمعيّة خِصال الأجداد. وعليه، لم تَحتَجْ إنجلترا، ذات التّنظيم الماهر، إلى أكثر من عامين اثنين من أجل تكوينِ جيشٍ مُجَهَّزٍ تجهيزًا جيّدًا، لكنّها احتاجت من أجل بثّ صِفَتَي الشّجاعة والإصرار في هذا الجيش، ونعني الصّفتين القادرتَين على تحويل المُتَطوِّعين المتردّدين إلى مقاتلين يحملون سمات المحاربين القدامى الجسورين،

احتاجت إلى تأثير العرق. حقيقة الأمر أنّ تكوين الأفواج، وتصنيع المدافِع يحتاجان إلى بضعة أشهر فحسب. إلى ذلك، لا بُدَّ من قرون كثيرة من أجل تشكيل قلب النّاس الّذين يتحكّمون بها.

(21)

تكشف الحربُ ضعف أيِّ شعبٍ، لكنّها تكشفُ فضائله أيضًا.

(22)

تُحوِّلُ الحربُ بعضَ الشّعوب بُغية تغيير المسار المستقبليّ لتاريخهم، شريطة أن يكونَ بمقدورهم الحفاظ، في أثناء السّلم، على جزء صغير من الصّفات التي تجلَّت في أثناء الحرب.

(23)

يُمكِنُ الحروبُ، التي تُسبّبها كراهيّات العرق، أن تنحَسِر، لكن لا يُمكن تفاديها البتّة.

الفصل الرّابع حياة الأموات وفلسفة الموت

(1)

إنّ خِصالَ الشّخصيّة التي تُكَوِّنُ عظمةَ أيِّ شعبٍ هي نتاجُ أجدادها. بعبارة أخرى، تتشكّل روحُ الأحياء من خلال روح الموتى.

(2)

في النّزاعات الكبرى، التي من شأنها أن تُقَرِّر مصيرَ أيِّ شعب، يقودُ جيشُ الموتى اللا مرئيُّ حركات المقاتلين. الحقّ أنّ معركة المارن رُبِحَت عن طريق الموتى. لقد كان الأمواتُ هنا أكثرَ عددًا من الأحياء بكثير، سواء في معركة تولبياك Tolbiac، أو بوفين Bouvines، أو مارنغو Marengo، وفي كلّ الأمجاد الماضية. الواقع أنّ الأموات وُجِدوا في كلّ تلك المعارك لكي يمنعوا فرنسا من الغرق في الهاوية التي يبدو أنّ قَدَرًا مشؤومًا يدفعُها إليها.

(3)

لا تتصدّى إراداتُ الأحياءِ بسهولةٍ لإرادات الموتى.

(4)

في إنجلترا، رأيُ الموتى أقوى من رأي الأحياء. اختبرت الحكومة الإنجليزيّة هذا الأمر في أثناء السّنة الأولى من الحرب. حقيقة الأمر أنّ مهمّتها الأصعب كَمنَت في التّغلّب على روح الموتى عبر روح الأحياء.

(5)

يُمثِّلُ اللا وعي، حيث تتبلور دوافعُ عددٍ كبيرٍ من أفعالنا، تكثيفًا لروح الأجداد.

(6)

ينبغي للموتى أن يحتفظوا بمكانتهم في قيادة أيِّ مجتمع، لكن لا يجدر بقوّتهم أن تكون استبداديّة كثيرًا، ذلك بأنّهم ينزعون إلى شلّ حركة التقدّم، لا لشيء إلّا لأنّهم غير قادرين على التقدُّم.

(7)

الحقّ أنّ الانضباط الدّاخليّ الّذي خلقَه الموتى هو، على الدّوام، أقلّ قسوةً من الانضباط الدّاخليّ الّذي يفرضُه الأحياء. والحال أنّه ينبغي للأفراد والشّعوب، الّذين لا يملكون الانضباط الأوّل، أن يستسلموا لتحمُّل الانضباط الثّاني.

(8)

عندما يُصغي الإنسان إلى روح عرقِه، يُصبِح معنى الموت جديدًا في نظره. وعليه، يعي أنّ الدّيمومة تختبئ خلف ما هو زائل، وأنّ الخلود الّذي يُرفَض منحُه للفرد، يُمنَحُ للعرق الّذي يُشكِّل هذا الفردُ جزءًا منه.

(9)

لا يعدو الموتُ كونَه انتقالًا للأفراد، ذلك بأنّ الوراثة تنقل الأرواحَ عينَها عبر بقيّة الأجيال التّابعة للعرق نفسه.

(10)

الواقع أنّ أفعالنا ليست زائلة إلّا في الظّاهر. ذلك بأنّ تأثيراتِها تمتدّ أحيانًا لقرونٍ كثيرة. بعبارة أوضح، تنسج حياةُ الحاضر حياةَ المستقبل.

(11)

تنطوي أشكالُنا العابرة على محتوى أزليّ. إلى ذلك، ينطوي كلُّ كائنٍ بشريٍّ، يظهر بصورة موقّتة على الخطّ الزّمنيّ بوصفه وريثَ ماضٍ طويل، على عددٍ كبيرٍ من الأجيال التي تَتَحَيَّنُ اللحظةَ المناسبةَ للتخلُّص من عدمها الموَقَّت.

الفصل الخامس تغيُّراتُ الشّخصيّةِ التي خلقتها الحرب

(1)

تبقى العناصرُ السّيكولوجيّةُ العميقةُ لأيِّ عرقٍ ثابتةً. أمّا العناصر الثّانويّة الّتي يمتلكها مختلف الأفراد الّذين يُكَوِّنونَ هذا العرق فهي مُتغيِّرة. تنجم عنِ التّوليفِ بينهما توازنات جديدة من شأنها أن تُوَلِّد شخصيّات جديدة.

(2)

يُمثِّلُ ما نعلمُهُ عن البشر المحيطين بنا، وما يعلمه هؤلاء البشر أنفسهم، شخصيّةً واحدةً من شخصيّاتهم الممكنة.

(3)

الحقّ أنّ نَفْسَنا اليوميّة تتغيّرُ بعضَ الشّيء بفعل العادةِ وثبات المحيط، ذلك بأنّهما يُوَجِّهانِها. من المحال، إذًا، توقّع الشّخصيّات التي تظهر تحت وطأة الضّرورة الـمُلِحَّة التي يفرضها التّكيّفُ مع ظروفٍ غير متوقّعة.

(4)

يحملُ كلُّ كائنٍ بشريٍّ في ذاته إمكاناتٍ كامنةً متعلِّقة بالشّخصيّة أورثها له مختلفُ أسلافِه. الحقّ أنّ الحوادث هي التي تجعلُ تلك الإمكانات تظهرُ وتعتلِن.

(5)

بشكل عام، يستطيعُ الإنسانُ أن يُحقِّق أكثر ممّا يخال نفسه قادرًا على تحقيقه، لكنّه لا يعي دائمًا ما يستطيعُ القيامَ به. وحدها الحوادث تكشف له قدراته التي يجهلها.

(6)

تُتَرْجَمُ الأقوالُ عبر الشّخصيّة الحقيقيّة لكلّ كائنٍ بشريّ. وحدها أفعاله تكشف عنه، وفي بعض الأحيان، تكشف له ما احتجب عنه.

(7)

عندما نكون تحت تأثير مُحَفِّزاتٍ قويّة، تتعدّل موازين الجهاز العقليّ. فالإنسان يُمكن أن يتغيَّر إلى درجة يُصبِح معها غيرَ معروفٍ حتّى لنفسه. بعبارة أوضح، تَحِلّ محلّ شخصيّته القديمة شخصيّة جديدة غير متوقّعة.

(8)

لكي يكون بالإمكان أن تولد شخصيّات جديدة، ينبغي للتّوازنات الاعتياديّة الخاصّة بالجهاز العقليّ أن تتفكَّك بفعلِ حوادث تُزَعزِع بقوّة علاقةَ الإنسان بمحيطه.

(9)

الواقع أنّ الحربَ مُحفِّزٌ قويٌّ لكلّ الطّاقات، سواء طاقات الخير أو الشرّ. إنّها تُحفِّز في الوقت عينه الفضائلَ، والرّذائلَ، والذّكاء.

(10)

الخِصال التي تُطوِّرُها الحربُ هي الخصال التي ترتقي بالإنسان فوق نفسه. من بين هذه الفضائل تبرز البطولة، والمثابرة، وروح التّضحية، والشّجاعة، وبخاصّة استمراريّة الجهد.

(11)

بصفة عامّة، تُوَجِّهُ رجلَ الحياةِ اليوميّةِ أنانيّتُهُ الفرديَّةُ. أمّا رجل المعارك فتُوَجِّهه مصالحُ العرقِ الجمعيّة.

الفصل السّادس أشكالُ الشّجاعة

(1)

الحقيقة أنّ مقاومةَ شعورِ الخوف الطّبيعيّ، الّذي يُوَلِّده الخطر، تُكوِّنُ الشّجاعة. إذا كَفَّ الخطرُ، مع بقائه عنصرَ تهديد، عن أن يكون مباشرًا، فإنّ الشّجاعةَ، عندئذ، تتطلّب المثابرة.

(2)

تطوّرَتِ الشّجاعةُ العسكريّةُ كثيرًا على مَرِّ التّاريخ. فمن الأبطال القُدامى إلى الأباطرة الإقطاعيّين، لم يجرؤ أيُّ مُحارِبٍ على مواجهة الحِرابِ غير المؤذية، والسّهام غير المؤكَّدة من دون حماية الدّروع الثّقيلة. الحقّ أنّ عاصفة الحديد والنّار التي يتعرَّض لها الجنديُّ الحديثُ، من دون حماية، كانت كفيلة بجعل الأبطال القدامى يتراجعون خوفًا.

(3)

فيما مضى، كانت لحظةُ بطولةٍ تكفي من أجل ضمان الخلود. أمّا اليوم، فإنّ غزوَ خطِّ خنادقَ يتطلَّبُ شجاعة مستمرّة لم يعرفها حتّى أبطال هوميروس. اشتهر أخيل، منذ ثلاثة آلاف عام، بمآثره التي لا تُخوِّله اليوم الحصولَ على صليب الحرب(7).

(4)

استبدَلَتِ الحروبُ الحديثةُ الشّجاعةَ المستمرّةَ والحَذِرةَ، بالشّجاعةِ المتقطِّعةِ والـمُتَهَوِّرة. الواقع أنّ الشّجاعة المستمرّة والحذرة أكثر نفعًا من الشّجاعة المتقطِّعةِ والـمُتَهَوِّرة، بيد أنّ تكوينَها أمرٌ بالغُ الصّعوبة.

(5)

تتفوّقُ البطولةُ الصّامتةُ لصراعات اليوم التي تحصل تحت الأرض، وبطولةُ الطيّار التّائه في اتّساع الفضاء، على البطولات السّاطعة، لكن الموقّتة، للمعارك القديمة.

(6)

لا تتحوّلَ الشّجاعةُ المتقطّعةُ، بفعلِ العادةِ، إلى شجاعة مستمرّة، إلّا إذا كانت الأخطارُ المتكرّرةُ متشابهةً. فالمقاتِلُ الّذي يُظهِر بطولةً في أثناء الهجوم، سيرتعد خوفًا من جهازٍ مجهول.

(7)

تتطلّبُ الشّجاعةُ، في مواجهةِ خطرٍ غيرِ متوقَّعٍ، إرادةً قويّةً تستوجِبُ، بدورها، إنفاقًا عَصَبيًّا لا يُمكن أن يمتدَّ أجلُهُ، ولا يُمكنُ إصلاحُه إلّا عن طريقِ راحةٍ طويلة.

(8)

أن تعرف كيف تُحوِّل خطرًا، وتعبًا، وضجرًا إلى عادة، هذا يعني أن تجعلها كلّها مقبولة بسهولة.

(9)

إذا كان الانتباهُ غيرَ قابلٍ للقسمة فيُمكن أن يتشتّت. يُمكن تحويل مخاوف الجنديّ بشكل مُفيد من خلال تدريبات متنوّعة ومُستمرّة.

(10)

ينتهي الأمر بكلّ مجموعةٍ عسكريّةٍ بأن تمتلك جسارةً جمعيّة. الحقّ أنّها تحتاج دائمًا إلى بعض الوقت لكي تتشكّل.

(11)

في بعض الأحيان، قد يخسر رجلٌ شجاعٌ غادرَ مجموعته، وانضمّ إلى مجموعة أخرى، حيث وجد نفسه مجهولًا، الكثيرَ من جسارته.

(12)

الواقع أنّ الجماعة العسكريّة نفسها يُمكن أن تعبُرَ من الخوف إلى البطولة، تبعًا للقائد الذي يقودها.

(13)

أن تُقنِع مجموعة عسكريّة بتفوّقها، يعني أن تغرس بطولة مستمرّة فيها، بطولة تُولَد النّجاح.

(14)

يكمن أحد العيوب السّيكولوجيّة للدّفاع في إحباط العزيمة والشّجاعة، في حين أنّ الهجوم يُحفّزها.

(15)

أثبت الخندقُ أنّ القيمةَ تُقاس بالمثابرة، والتّحمُّل، والمبادرة، والشّجاعة، والإرادة، والحُكم، وهي جميعها خصال لا تُعلّمها الكتب، ذلك بأنّها تتعلّقُ حصرًا بالشّخصيّة.

(16)

البطولةُ ليس لها طبقة.

(7) صليب الحرب (بالفرنسية: Croix de Guerre، بالإنجليزية: Cross of War) هو وسام عسكريّ لفرنسا، تم إنشاؤه لأوّل مرة في عام 1915، ويتكوّن من ميدالية مربعة الشّكل على سيفين متقاطعين، معلّقة من شريط بدبابيس مختلفة الدرجات. تمّ منح الزخرفة لأول مرة خلال الحرب العالمية الأولى، ومرة أخرى في الحرب العالمية الثانية. انظر ويكيبيديا (المترجم).

الفصل السّابع فنُّ الإقناعِ، وفنُّ القيادة

(1)

تَصنَعُ روحُ القائدِ روحَ الجنديّ، فالفرقة العسكريّة التي تخسر قائدها، الّذي أحسن قيادتها، تخسر في الوقت نفسه تماسكَها، وتتّخذُ سريعًا رخاوةَ الجمهور ولينَه.

(2)

تُسَهِّلُ الترقياتُ القيادةَ، لكنّها لا تُوَلِّدُ فنَّ القيادة.

(3)

تُكَرِّسُ الرُّتَبُ تراتبيّةً زائفةً غالبًا ما تكون وهميّةً في زمن الحرب. يُمكنُ القيمةُ الأخلاقيّةُ وحدَها أن تُوَلِّد الخضوع، والاحترام، والتّفاني لدى المرؤوسين.

(4)

تُعطي المباحث اللّغويّة قواعد تأليف الخطابات، لكن ليس بمقدورها أن تُعلِّم فنّ الإقناع.

(5)

في الخطابات المُعَدّة لإقناع جماعةٍ ما، يُمكن التّذرّع بالحجج، لكن ينبغي بادئ ذي بدء تحريك المشاعر.

(6)

في بعض الأحيان، تُقْنِعُ الحجّةُ للحظات، لكنّها لا تحثُّ على الفعل. لذا نجد أنّ القادةَ الكبار نادرًا ما يلجؤون إليها.

(7)

إنّ التّحكّم بالقوانين السّيكولوجيّة، التي تقود الجماهير، ضروريٌّ جدًّا من أجل غرس روح التّضامن في أيّ جماعة.

(8)

الواقع أنّنا نزيد كثيرًا من قيمةِ فرقةٍ عسكريّةٍ عندما نغرس فيها روح التّضامن. بفضل هذه الرّوح، اكتسبت بعضُ الأفواج، في أثناء الحرب، شهرةً كبيرة بحيث تمّ لُجِئ إليها دائمًا في الظّروف التي تتطلّب رجالًا لا تنثني عزيمتهم أبدًا.

(9)

الحقّ أنّ المجد والتّنافس جَمعيّانِ لدى أيِّ فرقةٍ تملك روح التّضامن. يمتدُّ تأثيرُ هذين الشّعورين، بفعل العدوى الذّهنيّةِ، ليبلغَ وحدات جديدة دخلت إلى تلك الفرقة، شريطة ألّا يكونَ عددُ الرّجالِ الّذين أُدمجوا فيها كبيرًا.

(10)

تُعَدُّ ثقةُ الجنديِّ بقادته عنصرًا من أهمّ عناصر قيمته.

(11)

إذا كان القائدُ يملكُ روحًا ذاتَ اتّصالٍ حميمٍ بروح رجاله، فإنّ كلمتَهُ لا تُجدي نفعًا، إذ تكفي إيماءةٌ أو نظرةٌ منه لتفيَ بالغرض.

(12)

إنّ المحافظة على الرّوح المعنويّة العالية لدى لجنود، وعلى حسّ المرَح عندهم، فنٌّ يجدر بأيّ قائد ألّا يتجاهله، لا سيّما أنّ الموت يتهدّد هؤلاء الجنود في كلّ لحظة.

(13)

الحقّ أنّ بعض الكلمات تشحذ الطّاقات، وتجعل الجنديّ حصينًا فلا يُقهَر. ينبغي لمن يُفكّر في هذه الكلمات، ولمن يقولها أن يكون حقًّا قائدًا عظيمًا.

(14)

يُمكن التّأثيرُ بسهولةٍ في الأناس المعزولين، من خلال مخاطبة مصالحهم، أي إلى أنانيّتهم. الجماهير ليست أنانيّة، لذا يتطلّبُ إغواؤها استخدام دوافع أخرى.

(15)

الواقع أنّ التّأكيد، والتّكرار، والهيبة، والعدوى تُشكّل عوامل الإقناع الكبرى، لكنّ آثارها تتوقّف على الشّخص الّذي يستعملها.

(16)

من أجل الإقناع، يجب التوجّه، بحسب الحالة، إلى التّأثيرات العاطفيّة، أو الصوفيّة، أو الجمعيّة التي تقود النّاس، ومن ثمّ، عدم التوّجه إلى الذّكاء إلّا في ما ندر.

(17)

نادرًا ما يكونُ الجدالُ وسيلةَ إقناع. فغالبًا ما تؤدّي مخالفةُ الرّأي إلى تقويته. ذلك بأنّ آراء الخصم تتغيّر إذا قدناه إلى الاقتناع بنفسه بسلسلةٍ من الاقتراحات، والتّأمّلات التي تنمو ببطء لاحقًا في اللا وعي. النّساء اللواتي يَعْرِفْنَ غريزيًّا هذا الأسلوب، يَنْجَحْنَ في الإقناع بسهولة.

(18)

يُغيِّرُ الخطيبُ بسهولةٍ رأيَ مستمعيه، لكنّ تأثيره فيهم سريع الزّوال، ناهيك بكونه لا يترك تأثيرًا يُذكر في سلوكهم.

(19)

غالبًا ما تختلف أصواتُ أيّ مجلسٍ اختلافًا كبيرًا بعد الخطاب مباشرة، أو في اليوم التالي لإلقائه.

(20)

إذا نجحنا في استمالة القلوب، فإنّنا نُسيطر بسهولةٍ على الإرادات.

الكتاب الثالث سيكولوجيا الشعوب

الفصل الأوّل روحُ الشّعوبِ وتشكُّلُها

(1)

تُمثِّلُ روحُ أيّ شعبٍ تراكمًا لعناصر سَلفيّة استقرّت عبر العصور. تطفو على هذه الصّخرة الصّلبة العناصرُ المتحرّكةُ للأرواح الفرديّة، هذه الأرواح التي خلقتها التّربية والبيئة.

(2)

لا يصلُ أيُّ شعبٍ إلى الاستقرار إلّا بعد أن يكتسب وعيًا جمعيًّا. يتطلّب هذا الاكتسابُ أحيانًا قرونًا.

(3)

تُمثِّلُ حياةُ أيِّ شعبٍ، ومؤسّساتُه، ومعتقداتُه، وفنونُه، وصراعاتُه، الشّكلَ المرئيَّ للقوى غير المرئيّةِ التي تقودُه.

(4)

يتأتّى سلوكُ أيِّ شعبٍ، ومن ثمّ، تاريخُه، من ذهنيّته.

(5)

لا يُمكن توقّعُ ردود الفعل الممكنة لأيّ شعب، إلّا إذا درسنا أفعاله في ظلّ ظروف تاريخه الكبرى.

(6)

أظهرتْ أخطاءُ التّوقّع، التي ارتكبها الدّبلوماسيّون الألمان حول الحياد المفترَض لإنجلترا وبلجيكا، استحالةَ توقّع سلوك أيّ شعب، إبّان الحوادث الكبرى، من خلال حياته السّيكولوجيّة اليوميّة.

(7)

لا تظهر الشّخصيّةُ الحقيقيّةُ لأيّ شعبٍ إلّا في الأزمات الكبرى التي يشهدها تاريخُه.

(8)

تُقْرَأُ روحُ أيِّ شعبٍ بشكلٍ جيّدٍ جدًّا من خلال أفعاله، وبشكلٍ سيّئٍ جدًّا من خلال كتبه، وخطاباته.

(9)

تُمثِّلُ الكتاباتُ والكلماتُ الرّوحَ الواعيةَ للحياةِ اليوميّةِ، أمّا الأفعال فتُمثِّلُ الرّوحَ الواعيةَ والثّابتةَ التي يخلقها الأسلاف.

(10)

تكفي بضعُ سنواتٍ لكي تُمَدِّنَ ذكاءَ أيِّ شعبٍ. لكن لا بُدَّ من قرونٍ طويلةٍ من أجل تَمدينِ شخصيّتِه.

(11)

تؤدّي التحوّلاتُ الذّهنيّةُ سريعًا إلى تحوّلاتٍ ماديّةٍ.

(12)

أصبحَ التطوّرُ الماديُّ لبعضِ الشّعوب أساسَ تطوّرهِم الأخلاقيّ.

(13)

لا يُغيّرُ أيُّ شعبٍ روحَه السّلفيّةَ، لكنّ هذه الرّوح يُمكن أن تخضعَ لتوجيهاتٍ جديدة، توجيهات تُوَلِّدُ النّجاح أو الكوارث. في هذا السّياق، تغيّرَ توجّهُ الذّهنيّةِ الألمانيّةِ تحت تأثيرِ عوامل ثلاثة: النّزعة العسكريّة، والتّوحيد السّياسيّ، والتّعليم التّقنيّ.

(14)

يُمكنُ شعبٌ ما أن يُغيِّرَ حضارته بتبنّيه لغةَ شعبٍ آخرَ، ومؤسّساته، وفنونه. بيد أنّه لا يُغيّرُ روحَه من أجل كلّ ذلك. فبعد أن غزا النّورمان(8) إنجلترا، ظلّ الإنجليز يتكلّمون الفرنسيّةَ

طويلًا، لكنّهم ظلّوا مع ذلك إنجليزًا. وعندما حاول الغولويّون Gaulois لَتْيَنَة(9) روما، لم ينجحوا في تغيير طابعها.

(15)

لم يَكُنْ على اليابان، التي انتقلت في بضع سنوات من استعمال القوس والنّشابة إلى استعمال الأسلحة، وإلى الصّناعة الحديثة، لم يكن أمامها، لم يكن عليها، من أجل استيعابِ حضارة جديدة، سوى استخدام خِصال الصّبر، والإصرار، والانضباط التي تركها لهم أسلافهم. لقد غيّرتِ اليابانُ حضارتَها، لكنّها لم تُغيّر روحَها.

(16)

يُمكن أن تتكوَّنَ الجنسيّةُ من أربعة عناصر مختلفة، نادرًا ما تتوفَّرُ لشعبٍ بعينِه، ونعني: العرق، واللّغة، والدّين، والمصالِح.

(17)

حقيقة الأمر أنّ الشّعوب التي لا تملك روحًا سلفيّة مُسْتَقِرَّةً بما فيه الكفاية، تعيش في الفوضى، ولا تتطوّر كثيرًا. أمّا الشّعوب التي تملك روحًا مُسْتَقِرّة للغاية فتتطوّر كثيرًا. في الأزمنة الحديثة، مَثَّلَ الرّوسُ مرحلةَ الاستقرارِ غير الكافي، أمّا الصّينيّون فَمَثّلوا مرحلةَ الاستقرار الكامل.

(18)

في حِقبةٍ ما من تاريخ أيِّ شعب، تبقى أخطاءُ الفِكر، والشّخصيّة، والحُكم، ومن ثمّ أخطاء السّلوك، بلا علاج. الحقّ أنّ الأخطاءَ هذه تُصبِحُ خلّاقةً من جرّاء تلك الحتميّات العنيدة التي رزحت تحت وطأتها الإمبراطوريّات الكبرى.

(19)

يُمَثِّلُ إحلالُ المجدِ الجمعيِّ، بوصفه دافعًا إلى الفعل، محلَّ المجدِ الشّخصيِّ تطوّرًا أخلاقيًّا هامًّا لأيِّ شعبٍ من الشّعوب.

(20)

لا تتحوّلَ الأممُ إلّا عن طريقِ تطوّرِ النّفوس. والحال أنّه ينبغي لأيِّ شعبٍ أن يُفَتِّشَ في ذاته، وليس في خارجها، عن أسباب عظمته أو انحطاطه.

(21)

في الظّروفِ الخطيرةِ التي يشهدُها التّاريخُ، تملكُ الشّعوبُ نظرةً ثاقبةً أكثر من حكّامها. ذلك بأنّها تُبصِر من خلال موتاها.

(22)

تُحَدِّدُ روحُ أيِّ شعبٍ النّظامَ السّياسيّ الّذي يُمكن أن تَقْبَلَ به، أكثر بكثير ممّا تُحدِّده إرادةُ قادتِها.

(23)

يُعَدُّ غرسُ المشاعرِ والمعتقداتِ، أو تنميتُها أو إزالتُها من روحِ الشّعوبِ، ركيزةً أساسيّةً من ركائزِ فنِّ الحُكم.

(24)

يُعَدُّ تحويلُ ذهنيّةِ شعبٍ ما، في بعض الأحيان، أهَمَّ من زيادةِ التّسلُّح.

(25)

لا يكفي غزوُ أرضِ أيِّ شعب، بل ينبغي كذلك قهر روحه من أجل السّيطرةِ عليه.

(8) إشارة إلى موقعة هستينكش (14 أكتوبر 1066) تعدّ هذه المعركة نصرًا حاسمًا للنورمان في حملتهم لغزو إنجلترا، دارت المعركة بين الجيش النورماني بقيادة وليام الفاتح، والجيش الإنجليزي بقيادة هارولد جادوينسون عند تل سينلاك على بعد ما يقرب من 10 كم شمال غرب هستينكش. انظر ويكيبيديا (المترجم).

(9) أي جعلها لاتينيّة. لمّا نزل الغولويّون نزلوا من وادي الدانوب، واستقروا في شمال إيطاليا أولاً، ومن ثمّ في سهل بو، وداهموا الجنوب، وبخاصة تجاه روما لأنها كانت غنيّة. (المترجم).

الفصل الثاني السّيكولوجيا المقارَنَة لبعضِ الشّعوب

(1)

تُقَدِّمُ كلُّ الشّعوب عددًا مُعَيَّنًا من الخصائص الـمُشتَركة، لكنّ كلَّ شعبٍ منها يمتلك جملة خصائص تُميّزه من غيره. على سبيل المثال: الإصرار لدى الإنجليز، والتّردُّد والغموض لدى الرّوس.

(2)

تتوقَّفُ رؤيةُ الأشياء من قِبَلِ أيِّ شعبٍ على مزاجه السّيكولوجيّ، أي إنّها تتوقّف على شخصيّته أكثر ممّا تتوقّف على ذكائه. الحقّ أنّ هذه الشّخصيّة هي الّتي تُحَدِّد الطّريقة التي يتفاعل بموجبها هذا الشّعب عندما يرزح تحت وطأة المؤثّرات الخارجيّة.

(3)

يملك كلُّ شعبٍ مثالًا أعلى عن الحقّ، والأخلاق، والعدالة. الواقع أنّه مثال أعلى شخصيّ للغاية لذلك لا يُمكن لأمم أخرى أن تقبلَ به. وعليه، أدّى الجهل بالقانون السّيكولوجيّ هذا إلى الانحطاط في كثير من المستعمرات.

(4)

يُحافَظ على بعض خصائص الشّعوب على امتداد تاريخها. في هذا السّياق قال جان دو سول Jean de Saulx، وهو نَبيلٌ من تافان Tavanne، قال في فترة حكم شارل التّاسع إنّ فرنسا لا تُقهَر عندما تبقى مُوَحَّدة، وإنّها البلد الّذي نعرف دائمًا أنّه بوسعنا ممارسة الأعمال فيه، وإن بدت هذه الأعمال ميؤوسًا منها.

(5)

كلُّ شعبٍ حرٌّ في توصيف المبادئ التي تُوجّهه بأنّها مبادئ خالدة، لكنّه لا يملك الحقّ أبدًا في فرضها على أمم أخرى ذات ذهنيّات مختلفة. الواقع أنّ الميتافيزيائيّات السّياسيّة مُحترَمة أيضًا شأنها في ذلك شأن الميتافيزيائيّات الدّينيّة، شريطة ألّا تُطالب بفرض نفسها عن طريق القوّة.

(6)

على الرّغم من أنّ روح البلقانيّين بسيطة للغاية، وتحكمها جملةٌ من العناصر البسيطة، فإنّها ظلّت في بداية الحرب لغزًا لغالبيّة الدّبلوماسيّين الأوروبيّين، لأنّهم أصرّوا على الحكم عليها وَفقًا لقواعد منطقهم الخاصّ.

(7)

سوف تُزوّدُنا الحربُ الحاليّةُ بتفسيرات جديدة تتعلّق بالقانون التّاريخيّ هذا، إذ ما من شعبٍ يستطيع أن يتبنّى مؤسّسات عِرقٍ مختلف، وفنونه، ولغته، وديانته، من دون أن يخضع لتحوّلات عميقة. عندما نُقِلَتِ البوذيّة الهنديّة إلى الصّين، اتّخذت سريعًا سمات الألوهيّة الصّينيّة. وعندما وصل يهوه الكتاب المقدَّس إلى إنجلترا، أصبح إلهًا إنجليزيًّا، حكمَ العالَم لصالِح إنجلترا. عندما تبنّى الجرمانيّون إلهَ المسيحيّين الـمُحِبّ والطيِّب، تحوّل إلى إله دمويّ وشَرِس، لا يحمل رحمةً للضّعفاء، بل يحمل كلّ التّقدير للأقوياء.

(8)

قَبْلَ الحرب، اجتاحت ألمانيا العالَم بصناعتها، لكنّها لم تجتحْهُ عن طريق أفكارها، ذلك بأنّ عصرَ الفلاسفة الكبار، والـمُفَكّرين الكبار قد أُقفِلَ منذ زمن بعيد.

(9)

الحقّ أنّ ألمانيا، وإن كانت معزولة، تبقى دائمًا كائنًا جمعيًّا. فهي لا تكتسبُ قيمة إلّا إذا انصهرت في جماعة. فكلُّ مواطنٍ خليّةٌ في الجسم الكبير، وأعني الدّولة.

(10)

الوعيُ الألمانيُّ وعيٌ جمعيّ تُوجّهه الدّولة، أمّا الوعي الإنجليزيّ والأمريكيّ فهو وعي فرديّ لا يترك للدّولة إلّا جزءًا صغيرًا من نفسه.

(11)

ما نُطلِق عليه النّزعة الجرمانيّة هي ببساطة الغرائز التي تولد دائمًا في نفس أيِّ شعبٍ من جرّاء اعتقاده أنّه قويّ بما يكفي ليُسيطر على أراضي الشّعوب، التي يفترض أنّها أقلّ قوّة منه، وعلى ثرواتها.

(12)

ينبغي لنا أن نعترف بأنّ الثّقافة الألمانيّة لا تخلق الكثير من التبصُّر، لأنّ أنصار ضمّ الأقاليم الـمُدَمَّرة إلى ألمانيا يُجَنَّدوا من بين الأساتذة، والموظَّفين، والصّناعيّين.

(13)

احتاجت بروسيا إلى أكثر من نصف قرن لكي تُشَكِّل ذهنيّة ألمانيا بواسطة المدرسة والثّكنة، لكنّ هذه الذّهنيّة ظلّت مصطنعة لأنّها تتناقض مع طبيعة الإنسان. سينتهي الأمر بالألمان حتمًا إلى تبيُّن أنّ النّصرَ، الّذي يُحقّقونه بوصفهم المدافعين الوحيدين عن الاستبداد والعنف، نصرٌ يُكلِّف غاليًا، ولا يُكْسِبُ إلّا القليل.

(14)

تبدو ذهنيّةُ الألمانِ العدوانيّةُ حتّى اللّحظة ذهنيّةً غير قابلة للاختزال. فبعد ثلاث سنوات من الصّراع العالميّ، طلب وزيرُ الحرب البروسيّ من الرايخستاغ اعتمادات من أجل افتتاح كليّة ضبّاط جديدة، بُغية الاستعداد للمعارك المستقبليّة التي، وفقًا له، ستعقب الحربَ الحاليّةَ، فالسّلميّة لم تكن سوى يوتوبيا خطيرة.

(15)

الواقع أنّ دراسة السيّد بيسينغ(10) Bissing، حاكم بلجيكا العام، يجب أن تُحفَر على جدران مدارسنا. فبعد أن بيَّن ضرورة أن تبقى بلجيكا رازحة تحت النّير الألمانيّ، وبعد أن أكّد أنّ الحاكم المـُجَرَّد من سلطته يُمكن أن يتحوّل إلى مصدر إزعاج، أوصى بشدّة باتّباع نصيحة مكيافللي الآتية: «كائنًا من كان يرغب في الاستيلاء على أيّ بلدٍ، يُلفي نفسه مضطّرًا إلى التخلّص من الملك، ومن الحكومة، ولو عن طريق القتل». لا نجد في أيّ بلدٍ آخر رجل دولة حديث يجرؤ على أن يخطّ سطورًا كهذه.

(16)

حقيقة الأمر أنّ الهوّة العقليّة بين الإنجليزيّ والألمانيّ تكشّفت بالفعل قبل الحرب من خلال سلوكهم إزاء الشّعوب الـمَغْزُوَّة. أعادت إنجلترا الحريّةَ لترانسفال(11) المهزومة. وأميركا، بعد أن نظَّمت جزيرة كوبا، تركتها تحكم نفسها بنفسها. على العكس، لم يعرف الألمان، سواء في بولندا، وفي الألزاس، وفي كلّ المستعمرات، نظامًا سيّاسيًّا آخر سوى العنف، ناهيك بكونهم جعلوا من الشّعوب التي حكموها أعداءً لهم.

(17)

لو اشتبه الألمان بالرّوح الإنجليزيّة، لعرفوا أنّ أعمالهم الوحشيّة التي ارتكبوها في بلجيكا ليس لها نتائج أخرى سوى إثارة سخط الإنجليز إلى حدّ جعلوا معه ملايين المقاتلين يبرزون فجأة في الأرض البريطانيّة.

(18)

لا يهتمّ الإنجليزيُّ كثيرًا بالنّظريّات والمنطق، لذا تراه يولي اهتمامًا بالحقيقة وحدها، ويجهد في التّكيّف معها.

(19)

طالما صنّفتِ الشّعوبُ القيمَ وفق درجة الفائدة التي تُوفِّرها لها. بهذا المعنى، وضع الرّومان، في العصور الأولى، القدرة على التحكّم في الرّمح في مكانةٍ أعلى من تأليف الأناشيد البطوليّة. الحقّ أنّ أيّ ألمانيّ، في أيّامنا هذه، سيكون فخورًا بإحراق كاتدرائيّة أو مكتبة، أكثر من فخره باكتشافِ كوكَب.

(20)

الوحشيّةُ هي شعورُ عرقٍ، شعور خاصّ ببعض الشّعوب، لا تستطيع العصور أن تمحوه البتّة. الواقع أنّ المتعة، التي وجدها قدامى الآشوريّين في رؤية أَسْراهم تُسلَخ جلودهم، هي عينها المتعة التي وجدها البلقانيّون في العصر الحديث وهم يُعذّبون أسراهم لفترة طويلة، وهي عينها المتعة الأخّاذة الواهمة التي استولت على الألمان إبّان تفجير لوسيتانيا.

(21)

حقيقة الأمر أنّ الشّعوبَ، التي نجحت الحضارةُ في تلطيف أخلاقها، وفي شَلِّ خِصال شخصيّتها، ستتصدّى بصعوبةٍ دائمًا للأعراق التي تتمتّع في الوقت عينه بلا وعيٍ وحشيّ، وبانضباطٍ صارم، وبرغبة في الغزو، وبحبّ النّهب.

(22)

من إحدى خصائص بعض الشّعوب عدمُ امتلاكها أيّ استقرار، لذا لا يُمكن الوثوقُ بها على الإطلاق. يُمكننا أن نُعمِّمَ بشأن الشّعوب هذه الملاحظة التي قدّمها نائبٌ قديم في

الرايخستاغ القَسّ ويترليه Wetterlé، في ما يتعلّق بزملائه. «كانوا جميعًا رِفاقًا طيّبين، ورجال أعمالٍ صالحين، لكنّهم كم كانوا كثيري التّقلّب، وغير آمنين. لقد رأيتهم ينتقلون من المعارضة الأكثر ثوريّة إلى تبنّي الحكومة الأكثر تشعّبًا. الحقّ أنّ هذا الأمر حصل بين لحظةٍ وأخرى، من دون دافع واضح. هدّدوا ذات يومٍ بتفجير مَقَرّ المستشار، وفي اليوم التالي صوّتوا بحماسةٍ للقوانين الرّجعيّة. لا يُمكننا أن نُعَوِّل البتّة، بشكل مطلق، على مساعدة الأشخاص المتقلّبين هؤلاء».

(23)

عندما ننسى أنّه لا يُمكن قياس جميع النّفوس بالمقياس عينه، نُعَرِّضُ أنفسنا لأخطاء جسيمة تتعلّق بتفسير سلوك الشّعوب.

(10) موريتز فون بيسينغ (1844 ـ 1917): عُيِّن عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى حاكم بلجيكا العام. انظر ويكيبيديا (المترجم).

(11) مستعمرة ترانسفال Transvaal Colony، هو الاسم الذي يستخدم للإشارة إلى منطقة ترانسفال في فترة الحكم البريطاني والاحتلال العسكري البريطاني المباشر بين نهاية حرب الأنغلو بوير عام 1902 عندما انحلت جمهورية جنوب إفريقيا، وأُسّس اتحاد جنوب إفريقيا عام 1910. انظر ويكيبيديا (المترجم).

الفصل الثّالث سوء التّفاهم بين الأعراق المختلِفة

(1)

يحكمُ سوءُ التّفاهم العلاقات بين الكائنات ذات العرق، والتّربية، والجنس المختلفة، ذلك بأنّ الإحساسات عينها، والكلمات نفسها توقظ في داخلهم أفكارًا ومشاعرَ مختلفة.

(2)

أظهرت الحرب مرّة أخرى إلى أيّ حدّ تجهل الشّعوب بعضها بعضًا. فألمانيا جهلت نَفْسَي فرنسا وإنجلترا. الواقع أنّنا لم نجهل بدرجة أقلّ النّفْس الألمانيّة.

(3)

تعلَّمتِ الشّعوبُ، من خلال الصّراع الحاليّ، كم أنّ بعض الكلمات من مثل: حقّ، وحريّة، وعدالة، وإنسانيّة، وقوّة، وغيرها الكثير، تغيّرت تبعًا للعرق. الحقّ أنّ الفلاسفة يعلمون هذا الأمر جيّدًا.

(4)

يُزوّدنا الواقعُ بمثالٍ من أكثر الأمثلة المدهشة على سوء الفهم بين أُناسٍ من أعراق مختلفة، ونعني التقاء الاشتراكيّين الألمان بالاشتراكيّين الفرنسيّين في كثير من المؤتمرات، من دون أن يتمكّنوا من الاشتباه في تباعد أفكارهم، ومشاعرهم، وحتّى نظريّاتهم.

(5)

الواقع أنّ الدّولانيّة(12) ممكنة في مجال المصالِح، لكنّها ليست كذلك في ما يتعلّق بالمشاعر.

(6)

ترجع استمراريّةُ كراهياتِ العرق إلى أنّ الأُناس الّذين يمتلكون ذهنيّات مختلفة يتصرّفون بطرق مختلفة تحت تأثيرات مختلفة. فالمعتقدات، والأحكام، والنّظرة إلى الحياة، تختلف جميعها لديهم.

(7)

إذا كانت أفكار الشّعوب الأجنبيّة، أو أفكار الشّعوب الميتة بعيدة المنال في أغلب الأحيان، فذلك لأنّنا لا نستطيع الحكم عليها إلّا انطلاقًا من ذهنيّتنا الخاصّة. فكيف نفهم اليوم، على سبيل المثال، رومانيًّا يُقدِّس أباطرته، ومدنه، وحتّى تجريدات بسيطة من مثل التّوافق؟

(8)

حقيقة الأمر أنّ الأساتذة، الّذين صرّحوا ذات مرّة بأنّ الشّعب الألمانيّ نموذجٌ جدير بالإعجاب، هم أنفسهم يُصنّفونه اليوم بأنّه نموذج للبربريّة. كان بإمكانهم أن يتفادوا تغيُّر الرّأي هذا لو أنّهم عكفوا على دراسة نظريّاتهم الفلسفيّة. الواقع أنّ الغزوات والمجازر الألمانيّة لا تعدو كونها تطبيقات بسيطة للتعاليم التي روّجت لها كتبهم منذ زمن طويل.

(9)

تبدو لنا نَفْسُ أيِّ شعبٍ منيعة عندما تبتعد كثيرًا عن نَفْسِنا، وبخاصّة عندما تتغيّر من دون توقّف تبعًا للظّروف، ذلك بأنّها لا تكون قد استقرّت بعد. لهذا السّبب يتعذّر علينا فهم تقلّبات النّفس الرّوسيّة.

(10)

لكي نستطيع أن نتحمّل بعضنا بعضًا، ينبغي للنّاس ذوي الذّهنيّات المختلفة أن يتجنّبوا بعضهم بعضًا. فحالما يجتمعون، تتعارض اختلافاتهم السّيكولوجيّة، ويُلفونَ أنفسهم في حالة نزاع.

(11)

نُعِدُّ طواعيةً كلّ إنسان لا يملك حكمنا على الأشياء إنسانًا يفتقر إلى كلّ أنواع الحكم.

(12) دَوْلَانِيَّة: مَذْهَب يَسْمُو إلي إِقَامَة اِتِّحَاد بين الشُّعُوب.

الفصل الرّابع دور الأوهام في حياة الشّعوب

(1)

تتوافقُ أوهامُ الشّعوبِ مع الحاجات غير القابلة للاختزال للذّهنيّة البشريّة، إذ طالما كان تأثيرها كبيرًا على امتداد التّاريخ. بعبارة أوضح، أُلْفِيَ ملايينُ النّاس، في مختلف الحقبات التاريخيّة، جاهزين للتّضحية من أجلها. فباسم الأوهام تدمّرت إمبراطوريّات كبرى، وشُيِّدَت أُخرى.

(2)

يُعَدُّ ضعفُ دور التّأثيرات العقليّة في حياة الشّعوب سببًا من الأسباب الّتي تجعل التّنبّؤ بمسارها أمرًا في غاية الصّعوبة. فإذا استبعدنا الأوهامَ، والأشباحَ من التّاريخ، لا يبقى أيّ شيء منه.

(3)

تنظر الكثير من العقول إلى عصرنا بوصفه عصرًا إيجابيًّا لا يخضع إلّا لسلطة العقل. بيد أنّ التّجربة أثبتت على العكس أنّ اليوتوبيات الأكثر توهّمًا ظلّت تقود العالَم. فباسم مهمّة السّيطرة المتوهّمة، دمّر الألمانُ أوروبا، في حين أنّ الدّولَ، التي جرى اجتياحها، وقعت ضحيّة أوهام من نوعٍ آخر، ونعني أوهام السّلميّة والأمميّة الّتي كادت تؤدّي إلى خسارتها.

(4)

الواقع أنّ السّذاجة الكاملة، وليس الشّكوكيّة، هي التي تُكوِّن الحالة الطّبيعيّة للأفراد بعامّة، والشّعوب بخاصّة.

(5)

لو لم يلعب الهاذون دورًا كبيرًا في التّاريخ، لتغيّر مجرى الحوادث تمامًا. مع ذلك، لا يعني هذا الأمر أنّ العالَم كان ليربح، فطالما مثَّلَ الخطأ مُحَفِّزًا أقوى بكثير من الحقيقة.

(6)

يستغني النّاسُ عن الخبز بسهولةٍ أكبر من استغنائهم عن الأوهام. فهم بافتتانهم بالأوهام المغرية هذه، ينسون مصالحهم العزيزة عليهم.

(7)

في الصّراع الأبديّ ضدّ الوهم، لا يُمكنُ العقلُ أن ينتصر من دون مساعدة الزّمن.

(8)

بإمكان التّجربة وحدها أن تُدَمِّرَ الأوهام سريعًا، شريطة أن تتّخذ شكلًا مأساويًّا. والحال أنّها تجعل الخطأ مرئيًّا على الفور، شأنها شأن البرق الّذي يُنيرُ اللّيل.

(9)

في اللّحظة الّتي ترتسمُ في العالَم مساعي سلامٍ جديدة، يُصبح من المفيد أن نتذكّر تأمُّل الرئيس روزفلت الآتي: كلّفتِ الأوهامُ السّلميّةُ فرنسا الكثير من أنهار الدّمع والدّم.

(10)

تُوَلِّدُ السِّلميّةُ بعضَ حروبِ الغزو. فالشّعبُ المُسَالِمُ الّذي لا يُخشى منه، يجذب حتمًا الاعتداء عليه. بيد أنّ الأمّة المُسَلَّحة بشكل جيّد نادرًا ما تتعرّض للاعتداء.

(11)

تنصاعُ الأوهامُ الجمعيّةُ للضّرورات، لكنّها لا تنصاعُ البتّة للاستدلالات العلميّة.

(12)

ستظلّ ألمانيا لوقت طويل مصدرَ خطرٍ، ذلك بأنّ اتّحاد الشّعوب ضدّها عزّز أوهامها، وغرورها. الحقّ أنّ عجزها عن فهم دوافع الاتّحاد هذا، جعلها تعزوها إلى غيرة عالميّة ولّدها تفوّقها الّذي تَدَّعيه.

(13)

ما نُسمّيه تقدّمَ الأفكار لا يعدو كونه تحوّل الأوهام التي خلقتها تلك الأفكار.

(14)

يُفضِّلُ السيّاسيّون الخطأ على الحقيقة، لأنّ الخطأ، بصفة عامّة، أكثر إثارة للإعجاب من الحقيقة.

(15)

الواقع أنّ القوى الماديّة المتصارعة اليوم باتت مخيفة، لكنّ الأوهامَ، الّتي وَلّدت القوى هذه، أكثر إخافة أيضًا.

(16)

سوف تبقى الأوهامُ جذّابةً أكثر من الحقائق، لأنّها تُولِّد الأمل، ومن ثمّ السّعادة.

(17)

من أجل تدميرِ خطإٍ ما، نحتاج إلى وقت أطول من الوقت الّذي احتجنا إليه من أجل تكريسه.

(18)

الواقع أنّ فنّ التحكّم بالأوهام ضروريّ للغزاة شأنه شأن فنّ التحكّم بالمدافع.

(19)

إنّ اللا حقيقيّ هو المـُوَلِّدُ الأكبر للحقيقيّ.

الفصل الخامس الآراء الفرديّة والسّلوك

(1)

من وجهة نظر فكريّة، تتوقّف قيمةُ الإنسان، بادئ ذي بدء، على حُكمه، ومن ثمّ على عدد معلوماته، ودقّتها. من وجهة نظر السّلوك، تتوقّف قيمته على شخصيّته.

(2)

تكمنُ الشّخصيّةُ الحقيقيّةُ لأيّ فرد أو لأيّ شعب في شخصيّته أكثر مّما تكمن في ذكائه.

(3)

يبقى الإنسانُ الذّكيُّ، الّذي يفتقر إلى شخصيّة تُميّزه، مقودًا ولا يُصبح قائدًا. فهو نادرًا ما يكون سيّد سلوكه.

(4)

تُمارس الآراء التي نعتنقها تأثيرًا ضعيفًا في السّلوك الّذي نُمارسه.

(5)

يملك كثيرٌ من النّاس الحقَّ في تأكيد ثبات آرائهم، لكن لا يحقّ لهم التّباهي بهذا الأمر. فهم بتباهيهم هذا يُظهرون أنّهم لم يتعلّموا شيئًا منذ اليوم الّذي تكوّنت فيه آراؤهم تلك. لا يُمكن التّباهي بدليلٍ واضح على الجهل أو على الغباء.

(6)

نادرة هي العقول القادرة على تشييد آرائها استنادًا إلى تأمّلات شخصيّة. الحقّ أنّ العرق، والفئة الاجتماعيّة، والمحيط، والمهنة، والصّحيفة تكفي غالبًا من أجل توجيه الأفكار، وتغذية الخطابات.

(7)

التّفكير جمعيًّا هو القاعدة العامّة. أمّا التّفكير فرديًّا فهو الاستثناء.

(8)

إنّ القيمة الممنوحة لرأيٍ ما لا تتعلّق بصفة عامّة بصحّتها، بل تتعلّق بالمكانة الّتي يمتلكها ذاك الّذي يُعبِّر عنها.

(9)

الواقع أنّ غالبيّة الكائنات البشريّة تبقى منطوية على نفسها في داخل شبكة من الآراء، والأحكام المسبقة، والأخطاء التي تُخفي عنهم الحقائق. إنّهم يعبرون الحياة من دون أن يتبيّنوا منها شيئًا سوى رؤى أحلامهم، أو قصص كتبهم.

(10)

في الكوارث الاجتماعيّة الكبرى، تُهيمن النَّفْسُ الجمعيّةُ على النَّفْس الفرديّة، وتفقد العقولُ الأكثر تميّزًا وشهرةً ملكاتها النّقديّة، وتُصبِح غير قادرة على تبيّن أيّ بديهةٍ بوضوح تامّ.

(11)

تُنسى جروحات المصلحة، لدى الأفراد، وبخاصّة لدى الشّعوب، بسهولة كبيرة. بيد أنّ جروحات احترام الذّات لا يُتَسَامَح فيها أبدًا.

(12)

النَّدم، بما هو شعور فرديّ، تجهله الجماعات. إنّ أبشع الجرائم التي ترتكبها أمّة ما، تجد في داخل هذه الأمّة كثيرًا ممّن يُدافعون عنها، تمامًا كما يُدافعون عن فضائلها.

(13)

أحيانًا يكون تجاهل بعضنا بعضًا أفضل بكثير من معرفة بعضنا بعضًا.

(14)

نُصادِف أناسًا كثيرين يتحدّثون عن الحريّة، لكنّنا نرى قلّة قليلة منهم لا تُكرِّس حياتها من أجل تقييد نفسها بالسّلاسل.

(15)

تبقى بعض فضائلنا، في بعض الأحيان، غير مؤكَّدة، إذا لم تمتلك الزّهوَ سندًا لها، لا سيّما في ظلّ غياب الوعد بالمكافأة.

(16)

الإنسان هو الخالق الحقيقيّ لقدره. يبقى هذا الإنسانُ حطامًا في الحياة عندما لا يقتنع بقدره.

(17)

تُتَرجَم الإرادات الهشّة من خلال الأقوال، أمّا الإرادات القويّة فتُتَرجَم من خلال الأفعال.

(18)

أن يُحاول المرء تغيير حياته الدّاخليّة أجدى نفعًا للسّعادة من استعمال قواه من أجل متابعة تحوّل حياته الخارجيّة.

الفصل السّادس الآراء الجمعيّة

(1)

أصبح الرّأيُ الجمعيُّ قويًّا للغاية، إلى حدّ أنّ أكثر الحكّام استبدادًا لم يتمكّنوا من مقاومته. الواقع أنّ الشّعوبَ، وليس الأسياد، هم الّذين سيفرضون قريبًا السّلام أو الحرب.

(2)

يُمثِّل الرّأي العام قوّة كبيرة، لكنّها نادرًا ما تكون قوّة تلقائيّة. ينبغي وجود قادة يخلقونه أو يُوجّهونه، بخاصّة في حال وجود صراعات كبرى.

(3)

أن تنضمّ إلى جماعة يعني أن تكتسب نَفْسَ هذه الجماعة، وآراءها. في التجمّعات ذات الملامح الواضحة: التجمّعات العسكريّة، والقضاة، والأساتذة، إلخ، تُعطي هويّة المهن، وبخاصّة العدوى الذّهنيّة، كلّ أعضاء التجمّع هذا آراء جمعيّة متقاربة.

(4)

يختلف تسلسل المنطق الجمعيّ عن تسلسل المنطق العقلانيّ، فالتّناقضات التي لا يحتملها الثّاني، يقبلها الأوّل بسهولة.

(5)

نادرًا ما تُفَكِّر الجماهير، لكنّها تحسّ وتتفاعل بشدّة. بين الإحساس والتّفاعل، يعرف الفرد كيف يُدرِجُ استدلالًا، بيد أنّ الفرد المنخرط في الجماهير لا يُحسن ذلك البتّة.

(6)

تملك الكلمات والصّور سلطة تأثير في نَفْس الجماهير تفوقُ سلطة كلّ الحجج.

(7)

إنّ رأيًا مؤسَّسًا على مشاعر جمعيّة يُمكن أن يكون صحيحًا، لكنّ العقلَ، بصفة عامّة، ليس له دور في تكوّن الرّأي هذا.

(8)

لاحظنا وبحقّ أنّ الجماهير في روسيا لا ترتبط بالأفكار، بل بالأفعال. ففي خلال بضع دقائق، صفّقت هذه الجماهير، بحماسةٍ، للخطباء، ودعمت آراء متعارضة تمامًا مع تلك التي صفّقت لها. الواقع أنّ الملاحظة نفسها يُمكن أن تنطبق على كثير من الدّول.

(9)

عندما يقترح الشّخصُ، الّذي نعهد إليه بإدارةِ عملٍ ما، أن تُساعده لجنة، ينبغي لنا أن نتراجع مباشرة عن طلبنا هذا.

(10)

عندما يُصبِح الخطأ جمعيًّا، يكتسب قوّة الحقيقة.

الفصل السّابع الأفكار في حياة الشّعوب

(1)

تُشْتَقُّ كلُّ حضارةٍ، مع مؤسّساتها، وفلسفتها، وأدبها، وفنونها، من عدد صغير من الأفكار الموجِّهة. الحقّ أنّ الأفكار هذه تترك بصمتها في جميع عناصر أيّ حضارة.

(2)

إنّ تحويلَ أفكارِ شعبٍ يعني تغيير سلوكه، وحياته، ومن ثمّ، تغيير مجرى تاريخه.

(3)

على الرّغم من أنّ الحرب الأوروبيّة بدت أنّها لم تستخدم سوى القوى الماديّة، لكنّها، في الواقع، استخدمت مجموعةً من الأفكار. فالدّيكتاتوريّة حاربت بشدّة التطلّعات الدّيمقراطيّة.

(4)

يتوقّف مصيرُ أيِّ شعبٍ على اليقينيّات التي تُرشِدُه أكثر ممّا يتوقّف على إرادات حُكّامه.

(5)

الواقع أنّ أفكار ألمانيا الحديثة أكثر خطورة من مدافعها. فالتّيوتونيّ(13)الأخير ظلّ مقتنعًا بتفوّق عرقه وواجبه، ومن جرّاء التفوّق هذا، وجد أنّه يملك الحقّ في فرض سيطرته على العالَم. هذا التصوّر، وهو عينه التصوّر الذي مارسه الأتراك طويلًا إزاء المسيحيّين، يُعطي حُكمًا أيَّ شعبٍ قوّة كبيرة. ينبغي ربّما شنّ سلسلة جديدة من الحروب الصّليبيّة من أجل تدمير التصوّر هذا.

(6)

الشّعوبُ الّتي تَدّعي أنّها تسترشد بأفكارٍ عقلانيّة محض، ستبقى على الدّوام أدنى عسكريًّا من الشّعوب التي تقودها المعتقدات السيّاسيّة، أو الدّينيّة، أو الاجتماعيّة، ذلك بأنّ الشّعوب الأخيرة هذه قويّة بما يكفي لكي تخلق تعصّبًا جمعيًّا.

(7)

إذا انتصرت الفكرة الألمانيّة، فإنّ وجه العالم سيتغيّر إذ سيجري تدمير استقلال الشّعوب إلى الأبد.

(8)

ينبغي للقيمة السّياسيّة أو الاجتماعيّة لأيّ فكرة ألّا تُقاس بحسب درجة الحقيقة، بل بحسب درجة التّفاني الّتي تستلهمها. إذا حكمنا على الأفكار الخاطئة، انطلاقًا من دروس الماضي، ومن دروس الحرب الحاليّة، لوجدنا أنّ الأفكار هذه تتركُ في النّفوس، في أغلب الأحيان، الانطباعاتِ الأكثرَ عمقًا.

(9)

لكي تنتشرَ فكرةٌ، وتُصبِحَ دافعًا للفعل، يجب أن تمتلك دعمًا شعوريًّا أو صوفيًّا. فالفكرةُ العقليّةُ المحض ليست مُعْدِيَةً، ولا تؤثِّرُ البتّة في نَفْس الجماهير.

(10)

من شأنِ فكرةٍ غامضةٍ ومُبهَمةٍ، لكنْ يَكتنِفُها الغموض، أن تُثيرَ الحماسةَ بسرعةٍ، في حين أنّ الفكرة الواضحة والـمُحَدَّدة تبقى دائمًا من دون أثر.

(11)

الحقيقة أنّ الوقائع الّتي تُزَعزِعُ حياةَ الشّعوب تُغيِّر في أغلب الأحيان الأفكارَ التي تُثيرُها الكلمات. ثمّة مصطلحات قديمة لا تُستَخدم كثيرًا، من مثل الوطن، برزت فجأةً بروزًا قويًّا، وثمّة مصطلحات أخرى كانت مُحَمَّلةً قديمًا بالتّطلّعات والآمال، من مثل السّلميّة والدّولانيّة، فقدت فجأةً كلّ مكانةٍ لها.

(12)

ينتهي الأمر بأيِّ شعبٍ يتباهى بفضائل لا يمتلكها بالاقتناع تمامًا بأنّه يمتلكها.

(13)

من أجل توجيهِ سلوكِ أيِّ شعبٍ، لا تحتاج الأفكارُ إلى أن تكونَ صحيحةً، بل يكفي أن تمتلِكَ مكانةً.

(14)

تدين السِّلميّةُ والدّولانيّةُ، اللّتان كلّفَتانا غاليًا، بقوّتيهما إلى الأخطاء الـمُغْرِيَة الّتي كانت بمثابةِ دعمٍ لهما.

(15)

تُوَلِّدُ الحوادث الكُبرى، في بعض الأحيان، أفكارًا تتناقض مع الأفكار الّتي جعلتَها تُولَد. الواقع أنّ النظريّات الألمانيّة المتعلِّقة بالحقّ والقوّة ستتحوّل من دون شكّ بفعل الحرب الحاليّة.

(16)

تخضع الأفكارُ، كما الكائنات، لعمليّة التطوّر الّتي تحكم على العالَم بالتحوّل. فالأفكار المـُوَجِّهة، في حقبةٍ مُعيَّنة وحسب، ليست كذلك في حقبةٍ أُخرى. الحقّ أنّ نسيان المبدإ هذا تسبّب لنا في الكثير من الكثير من الأخطاء عند بداية الحرب.

(17)

لا نستطيع أن نُغيِّر أفكار أيّ شعبٍ إلّا إذا غيَّرنا شعاراته. الحقيقة أنّ التّجارب الـمُتَكَرِّرة ضروريّة من أجل تحديد تغيّرات كهذه.

(18)

التفاؤل، شأنُه شأن السّلميّة، تَبِعَةُ حالة ذهنيّة. التّفاؤل يجعلُ الإنسان أكثر سعادة، أمّا التّشاؤم فيجعله أكثر تبصُّرًا. لو أنّ فرنسا استعدَّت للحرب الّتي أتى بعضُ المتشائمين على ذكرها، لكن نَفاها المتفائلون المَحُوطون بالسّلميّة، لَتَفادَتِ الكثيرَ من الخراب.

(19)

الحقّ أنّ الأفكار الخاطئة هي الـمُدَمِّرُ الأكبرُ للتّاريخ. ذلك بأنّ الأسلحة الماديّة لا تكفي أبدًا من أجل مواجهتها.

(20)

بصفة عامّة، تُقَدَّمُ فكرةٌ خاطئةٌ لا تأخذ بالحسبان الحقائق، ولا الاحتمالات، تحت مظهرٍ أكثر إغراءً من فكرة حقيقيّة.

(21)

تجدُ فكرةٌ خاطئةٌ، بسهولةٍ، آلافَ النّاس الّذين يُدافعون عنها. بيد أنّ فكرةً حقيقيّةً نادرًا ما تجد من يُدافع عنها.

(22)

عندما تجتاحُ فكرةٌ خاطئةٌ مجالَ الفاهمةِ، تعجز التّجاربُ المـُبَرهَن عليها عن التّأثيرِ فيها.

(23)

الواقع أنّ إدخال فكرة خاطئة في نَفْس الجماهير، يعني إشعال نارٍ لا يستطيعُ أحدٌ أن يتوقَّعَ أضرارَها. ينبغي لقادة الإمبراطوريّة الألمانيّة اليوم أن يقتنعوا بهذا الأمر.

(24)

إذا كان تاريخُ الحروبِ يُسجِّل الحروبَ التي تَسبَّبت فيها الأفكارُ الصّحيحةُ وحسب، فإنّ التّاريخَ هذا سيُصبح قصيرًا للغاية.

(25)

لقد جرى تسليطُ الضّوءِ على متانةِ الأفكار الخاطئة، وعلى خطرها في المؤتمرات الّتي نظّمها الاشتراكيّون إبّان الحرب. والحال أنّنا شاهدنا مؤرّخين عنيدين يُكرِّرون، بلا مَلَلٍ، أخطاءهم المتعلّقة بالسّلميّة والدّولانيّة اللّتين تُعَدّان أصلَي مآسينا.

(26)

عندما ستنتهي النّزاعات العسكريّة، ستدخلُ بعض الأفكار الصّامتة اليوم في نزاعٍ بعضها مع بعض. إلى ذلك، يتوقّف مستقبل الشّعوب على نتائج الصّراع هذا بين الأفكار الصّحيحة والأفكار الخاطئة.

(27)

يُمكن القول إنّ أكثرَ الغزاةِ دمويّةً هم أقلّ تدميرًا من الأفكار الخاطئة.

(13) فرسان التيوتون (بالألمانية: Deutscher Orden) طائفة عسكرية مسيحيّة ألمانية. تأسست سنة 1190 كمنظّمة تمريضيّة، لكنّها تحوّلت إلى نمط فرسان المعبد وفرسان الأسبتارية، وشاركت في الحروب الصليبية مثلهم، وكان لها مقرّ في عكا. اعترف بها البابا سنة 1191 وفي سنة 1198 أقاموا نظامًا عسكريًّا. أهم مراكزهم كانت في الشام في أنطاكيا وطرابلس. سنة 1210 قتل معظم فرسانهم وقادتهم. كان فرسان التيوتون يلبسون أزياء بيضًا عليها صليب لاتيني. غزوا بروسيا سنة 1226 وأبادوا سكانها بحجة تحويلهم للمسيحيّة، وأقاموا فيها مستعمرات يسكنها ألمان. مقرهم كان في مارينبورغ ثم في كونيغسبرغ. في 1242 تمردت القبائل البروسية عليهم فشنّ فرسان التيوتون عليهم حملة صليبية تكونت من 60 ألف ألماني وبوهيمي لإنقاذ التيوتونيين الذين سيطروا من جديد سنة 1260. انظر ويكيبيديا (المترجم).

الفصل الثّامن شيخوخةُ الشّعوب

(1)

لا يُوجَد مثالٌ في التّاريخ على أممٍ عَرفتِ التّقدّم دائمًا. فبَعد مرحلةٍ من العظمة، انحدرت، واختفت، ولم تترك خلفها غالبًا سوى بقايا غير مُؤكَّدة.

(2)

إذا كان ينبغي لدورات التّاريخ أن تتكرّر، فإنّه سيُحكم على كلّ الأمم بأن تشيخ، وتختفي، شأنها شأن أمم الماضي. بهذا المعنى، غطّى التّرابُ بقايا نينَوى، ومجد روما لم يعد كونه أكثر من ذكرى.

(3)

تهلكُ الشّعوب، بيد أنّ أعمالها تخلد أحيانًا. لكنّ حياةً جديدةً تنبثق سريعًا بعد الموت. فعلى غُبار الأعراق الّتي شيّدتِ الأهرامات وُلِدت أعراقٌ جديدة، أعراقٌ غنيّة بحقائق غير معروفة عن الحضارات القديمة.

(4)

ما نُطلِق عليه شيخوخة الشّعوب هي شيخوخة ذهنيّة أكثر منها شيخوخة بيولوجيّة.

(5)

تبدأ شيخوخة أيّ شعبٍ ـ شعب لَيَّنَهُ رَغَدُ العيشِ فأصبح غيرَ قادرٍ على بذل أيّ جهد ـ عندما يُحِلُّ الأنانيّةَ الفرديّةَ محلَّ الأنانيّة الجمعيّة، ويبحث عن الحصول على أكبر قَدْرٍ منَ السَّكينة مع أقلِّ قَدْرٍ من العمل، ويظهر عاجزًا عن التكيُّف مع الضّرورات الجديدة الّتي يجعلها تطوّرُ أيّ حضارةٍ تظهر وتَعْتَلِن.

(6)

الحقّ أنّ الشّعوبَ لا يتعاظمُ أمرُها أبدًا عندما تُصبِحُ حياتُها سهلةً للغاية. فروما لم تتقدَّم إلّا في أثناء فترة الصّراعات. الواقع أنّ عصرَ السِّلم والازدهار الماديّ عَلَّمَ بدايات انهيارِها.

(7)

تُوجَد في تاريخ الشّعوب لحظاتٌ يُمكنُ أن تُشكِّلُ فيها عبادةُ القوّةِ، وشغفُ الرّبحِ، والنِّيّةُ السَّيِّئةُ عناصر تقدُّم، بيد أنّ نجاحاتٍ كهذه تُفضي سريعًا إلى الانحطاط. اختبرَت قرطاجُ قديمًا هذا الأمر. فعلى الرّغم من ثرائها، ومن قوّة جيوشها، اختفَت من التّاريخ، ولم تترك خلفها بقايا سوى احتقار الشّعوب الإيمانَ القرطاجيّ(14).

(8)

يؤكِّدُ بيكون Bacon أنّ المُسِنِّينَ يعترضون كثيرًا، ويتشاورون بإسهاب، ويُغامرون قليلًا، ويندمون سريعًا، ونادرًا ما يتصرّفون في اللّحظة المناسبة، ويكتفون بنجاحاتٍ متواضعة. إنَّ عيوبًا كهذه تُلاحَظ تمامًا لدى الشّعوب الّتي شَلَّتْ طاقاتِها أسبابٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

(9)

إنّ عدمَ القدرةِ على اتّخاذ القرار، والميل إلى عدم القيام بأيِّ فعل، والخوف من تحمُّل المسؤوليّات أعراضُ شيخوخة تُصيبُ الأفراد والشّعوب.

(10)

يبدو أنّ الشّعوب عندما تصل إلى مرحلةٍ ما من وجودها، تُصبِح عاجزةً عن التّقدُّم من دون مُساعدة الأزمات الكبرى التي تُزعزِع حياتها. الواقع أنّ الأزمات هذه تبدو ضروريّة من أجل تحريرها من قبضة ماضٍ غدا ثقيلًا للغاية، ومن أحكامٍ مُسبقةٍ، ومن عاداتٍ مُتَرَسِّخة للغاية.

(11)

يشيخُ شعبٌ ما سريعًا عندما يدع كلّ ما حوله يتجاوزه، أي عندما لا يعرف كيف يتكيَّف مع الضّرورات الجديدة. إذا حكمنا على بعض الأمم استنادًا إلى الإحصاءات الصّناعيّة، والبحريّة، والتّجاريّة، في مرحلة ما قبل الحرب، لوجدناها متأخِّرة جدًّا عن أمم أخرى. قد يُصبِح الصّراع الحاليّ مُحفِّزًا قادرًا على إيقاظ النّشاطات الغافية.

(12)

عندما تُسلِّطُ كارثةٌ ما الضّوءَ على التّآكل المجتمعيّ، ومن ثمّ على عجز بُنيةٍ مُجتمعيّةٍ قديمة، يبدو تبديلُها أمرًا مُلِحًّا. الحقّ أنّ العمليّة الصّعبة هذه قادرة ـ إذا أُديرتَ بشكل جيّد

ـ على مَنْحِ المجتمع المـُتَزَعزِع حياةً جديدةً. لكن إذا قيدت بشكل سيّئ ـ وتلكم هي الحال الأكثر تواترًا ـ فإنّها ستتسبَّبُ في فوضى وَسَمَت نهايةَ تاريخِ بعضِ الشّعوب.

(13)

من بين أسباب الدّمار الّتي تُهَدِّد الحضارات القديمة، يُمكننا أن نذكر تراكم الأنظمة الّتي تحكم الحياة الاجتماعيّة. الواقع أنّها تشلّ الحريّات، والمبادرات، وختامًا تشلّ إرادةَ العمل.

(14)

ثمّة مهَن تخلق في جميع العصور التّشوّهات العقليّة نفسها. في هذا السّياق، تذمّر مكيافلّلي من بيروقراطيّة هيئات الأركان في عصره، ومن روتينها.

(15)

حقيقة الأمر أنّ تطوير النّزعة السّلميّة، لدى شعبٍ مَحُوط بأممٍ تتوق إلى الغزو، يُجفِّف ينابيع نشاطه، وسرعان ما يقوده إلى العبوديّة.

(16)

إنَّ ماضيًا من العظمةِ هو على الدّوام حملٌ ثقيل على كاهل الشّعوب، وفي بعض الأحيان عبءٌ جسيم.

(17)

الواقع أنّ درجةَ حيويّة مختلف الأمم ستُصبِح أوضح بعد السّلام، وليس في أثناء الحرب.

(14) الإيمان القرطاجيّ أو البونيّ La Foi Punique: إشارة إلى الغَدر الّذي اتُّهِم به الرّومان القرطاجيّون. (المترجِم).

الكتاب الرّابع العوامل الماديّة لقوّة الأمم

الفصل الأوّل عصر الفحم الحجريّ

(1)

في مرحلة التطوّر الحاليّ الّذي يشهده العالَم، تُهيمن الضّروراتُ الاقتصاديّةُ على أفعال الشّعوب والملوك أكثر بكثير ممّا تُهيمن عليها إراداتهم.

(2)

بالتّأكيد اجتاحَ العصرُ الصِّناعيُّ العالَم. الواقع أنّ تفوّقَ أيِّ شعبٍ لم يعد يتَّسِمُ بتطوّر فلسفته، وأدبه، وفنونه، بل بات يتَّسِمُ بثروته من الفحم الحجريّ، وبقدرته التقنيّة.

(3)

في كلّ العالَم القديم، ووصولًا إلى حقبةٍ حديثة، توقّفت قوّةُ أيِّ بلدٍ كثيرًا على عدد سكّانه وعلى قدرتهم. بيد أنّ قوّته باتت تتوقّف اليوم على ثروته من الفحم الحجريّ.

(4)

يتميّزُ التطوّر الجديد للعصر الحديث بالدّور الّذي يلعبه الفحم الحجريّ. على امتداد قرنينِ اثنين لم يكنِ الفحمُ هذا ذا طائلٍ، لكنّه أصبح ضروريًّا للغاية، ذلك بأنّ حياةَ أيّ بلدٍ باتت تتوقّف في حال اختفائه. الحقّ أنّ وفرتَه تؤدّي إلى زيادة شبكات سكك الحديد، وإلى بناء المزيد من المصانع، وفي زمن الحرب يُساهم في تصنيع المزيد من المدافِع.

(5)

بإمكان الفحم الحجريّ وحده أن يخلق الآليّة التّجديديّة للحضارة.

(6)

في حياة الشّعوب، ينتهي الأمرُ بتسلسل الظّواهر إلى الهيمنة على جميع الإرادات. في هذا السّياق، سمح اكتشافُ مناجم الفحم لألمانيا بتصنيع منتجات التّصدير. نَجَم عن ذلك فائضٌ في الإنتاج استوجبَ غزوَ الأسواقِ البعيدة، ومن ثمّ، تكوين أسطول قويّ من أجل حماية الصّادرات تلك. تعاظمت الطّموحات الألمانيّة، وتحقيق الحلم القديم بدا ممكنًا.

(7)

لا تُحَدِّدُ ثروةُ أيّ بلدٍ من الفحم ومن الحديد اليوم مستوى قوّته العسكريّة والصّناعيّة وحسب، بل تُحَدِّد كذلك إمكانيّة توسّعها التّجاريّ.

(8)

الحقّ أنّه جرى تسليط الضّوء على الدّور الكبير للحديد والفحم في الحروب الحديثة من خِلال البيان الّذي أصدرته جمعيّات ألمانيا الصّناعيّة الستّ الكبرى، مؤكِّدةً أنّ الصّراع ما كان ليستمرّ من دون غزو الـ bassin de Briey، في بداية الحرب، بسبب الافتقار إلى الحديد الّذي لا غنى عنه من أجل الذّخائر.

(9)

تنجم قوّةُ أيِّ بلدٍ، الّتي تمنحه إيّاها ثروتُه من الفحم الحجريّ، عن كون العمل الشّهريّ الّذي يؤدّيه موظَّفٌ، ويُكَلِّفُ قُرابةَ 1500 فرنك، بات يؤدَّى من خلال كميّة من الفحم تُقَدَّر بثلاثة فرنكات. والحال أنّ العاملَ ـ الفحميَّ يُكلِّفُ أقلّ بخمسمئة مرّة من العامل البشريّ(15).

(10)

يعودُ ازدهارُ ألمانيا الاقتصاديّ، على وجه الخصوص، إلى أنّها تَستخرِجُ سنويًّا من أرضها 190 مليون طن من الفحم. الحقيقة أنّ طاقتها الميكانيكيّة تُمَثِّلُ العملَ اليدويَّ لـ950 مليون عامل.

(11)

الواقع أنّ السّعيَ إلى تخزين الطّاقة الشّمسيّة، تمامًا كما فعلت النّباتات الّتي كوَّنَت قديمًا الفحم الأسود، سيكون مُشكلةً من مشكلات المستقبل الكبرى للشّعوب المحرومة من الفحم.

(12)

لا يُمكِنُ لبلدٍ ثروتُهُ من الفحم غيرُ كافيةٍ أن يُصنِّعه بطريقة اقتصاديّة. والحال أنّه يجد نفسه مُرغمًا على حصر صادراته بالمنتجات الّتي يتطلّب تصنيعها قوّة مُحَرِّكة ضعيفة.

(13)

تعودُ زيادةُ إنتاجِ الفحمِ في بلدٍ ما إلى زيادة عدد عمّاله. يُعَدُّ أيُّ شعبٍ، يملك كثيرًا من الفحم وقليلًا من السكّان، أغنى وأقوى من شعبٍ يملك عددَ سكّانٍ كبيرًا، وقليلًا من الفحم.

(15) بإمكانكم أن تجدوا عناصر هذا الحساب في كتابنا: **دروس سيكولوجيّة من الحرب الأوروبيّة**.

الفصل الثّاني الصّراعات الاقتصاديّة

(1)

الواقع أنّ الصّراعات الاقتصاديّة مُدمِّرة في بعض الأحيان، شأنها شأن الصّراعات العسكريّة. أظهرَ التّاريخُ أنّ الصّراعات الاقتصاديّة هذه تسبّبت في انحطاطِ دولٍ كثيرة.

(2)

لا تقدُّم من دون مُنافسة، ومن ثمّ، من دون صراعات اقتصاديّة.

(3)

في أيّامنا هذه، يُمكنُ صراعٌ اقتصاديٌّ أن يُثريَ المنتصِر. أمّا الصّراع العسكريّ فيُدمِّره لوقت طويل. حقيقة الأمر أنّ العلاقات بين الشّعوب ستتحوّل عندما تُثبِتُ التّجارب المُتَكرِّرة بما يكفي صحّةَ الحقيقةِ هذه.

(4)

عندما يجتاحُ شعبٌ ما، تدريجيًّا، أيَّ أمّةٍ بمنتجاته، يتوصَّل إلى السّيطرةِ عليه سيطرة كاملة، الأمر الّذي لا يُحقِّقه إذا اجتاحها عن طريق الأسلحة. الحقّ أنّ التّبعيّة الاقتصاديّة تخلق سريعًا تبعيّة سيّاسيّة.

(5)

التّحالفات العسكريّة سهلة، لأنّها تجمع المصالِح المتماثلة. أمّا التّحالفات الاقتصاديّة المستدامة فهي شبه مستحيلة، ذلك بأنّ مصالحَ الحلفاءِ الصّناعيّةَ والتّجاريّةَ ليست متماثلة.

(6)

في المجالَين الصّناعيّ والتّجاريّ، لا يُمكنُ أيُّ قيدٍ جمركيّ، وأيُّ تدخُّلٍ من الدّولة، وأيُّ نصٍّ تنظيميّ أن يُغَطّي بشكلٍ مُفيدٍ عدمَ الكفاءة المهنيّة، وغياب المبادرة.

(7)

عندما يمتلكُ شعبٌ ما صناعةً شبهَ مُزدهِرة، ينبغي له أن يجهد، قبلَ أيِّ مشروعٍ آخر، في جعلِ الصّناعة هذه مزدهرة تمامًا.

(8)

وفقًا للإحصاءات، فإنّ فرنسا، على الرّغم من جودةِ أرضها، لا تمتلك معدَّلًا وسطيًّا إلّا ثلاثة عشر هيكتوليترًا من القمح للهيكتار الواحد، في حين أنّ ألمانيا تمتلك واحدًا وعشرين هيكتوليترًا، والدّنمارك سبعةً وعشرين. ويعود السّبب في ذلك إلى طرائقها البدائيّة التي تعتمدها في الزّراعة. الأمر نفسه يُقال عن زراعة الشّوفان والشّعير. ألا يبدو بديهيًّا أنّ تحسين زراعتنا سيكون مثمرًا أكثر من التّصنيع الشّاقّ بُغية تصدير بضائع لا تُدِرُّ ربحًا كثيرًا من جرّاء المنافسة؟

(9)

لهذا السّبب قال مدافعٌ شهيرٌ عن الزّراعة، حديثًا، إنّها ستُصبِح حجر الزّاوية في الإصلاح الوطنيّ.

(10)

يعود السّببُ في تناقصِ القدرةِ الاستيعابيّةِ التّجاريّةِ للشّعوب البعيدة إلى أنّها تتقدّم. يبدو أنّ اليابان، وقريبًا سائر دول آسيا، مُضطرّة إلى إغلاق حدودها تمامًا أمام المنتجات الأوروبيّة.

(11)

في الدّول التي تبقى فيها الصّناعةُ فرديّةً، ليس بمقدور الصّناعةِ هذه أن تواجه التجمّعات الـمُتشكِّلة في الخارج.

(12)

تكمنُ واحدةٌ من أعظم نقاط قوّة الصّناعة الألمانيّة في قدرتها على تنظيم جمعيّة مُصَنِّعي المنتجات المماثِلة، وجعلِها الإنتاجَ اقتصاديًّا للغاية.

(13)

الواقع أنّ جمعيّات الصّناعات الـمُماثِلة، والـمُعَمَّمَة منذ وقتٍ طويلٍ في ألمانيا تحت اسم الكارتلات(16)، هي شرط أساسيّ للتقدّم الصّناعيّ الحديث. ينبغي لِمُصَنِّعينا، لكي يواجهوا بشكلٍ مُجدٍ الغزواتِ التّجاريّةَ الجديدةَ، أن يتعلّموا كيف يتوحّدون عوضًا عن أن يتقاتلوا.

(14)

حقيقة الأمر أنّ مواجهةَ غزوِ البضائع الألمانيّة ليس مُمكنًا إلّا عن طريق تصنيع منتجات مماثلة بالسِّعر نفسه. وبعد، إنّ فرض قيود جمركيّة، يجري افتراضها غير قابلة للانتهاك، ليس له تبعات أخرى سوى إدخال الدّول الـمُحايِدة مُنتجات مُصَنَّعة في ألمانيا، أو إدخالها إلى الدّول المحايدة هذه عن طريق الألمان. الحقّ أنّ هذا الأمر سيُثري شعوبًا أخرى على حسابنا.

(15)

كان ينبغي للصّراع العالميّ أن يندلع لكي يكشفَ أنّ التّجارة الألمانيّةَ ستجتاحُ تدريجيًّا كلّ الأسواق. سوف نُراكِمُ الكثير من النّقاشات قبل أن نشرح كيف أنّ الألمان، الّذين كانوا يتمتّعون بوضعيّة استثنائيّة، لم يفعلوا المستحيل لكي يتجنّبوا الحرب.

(16)

لا نُغالي إذا قلنا إنّ محاولات ألمانيا المستقبليّة من أجل السّيطرة الصّناعيّة ستكون مخيفة أيضًا شأنها شأن حلمها في السّيطرة العسكريّة.

(17)

في انتظار اليوم الّذي يتغيّر فيه توجيه الأفكار تمامًا، سوف يشهد العالَم، من دون شكّ، صراعات اقتصاديّة تتزامن مع صراعات الحرب، وتولِّد بعضها بعضًا.

(18)

تُمثِّلُ الصّراعات الـمُسَلَّحة حالة موقّتة، أمّا الصّراعات الاقتصاديّة فتُمثِّل حالة دائمة.

(16) اتّحادات قائمة على الاحتكارات. (المترجِم).

الفصل الثّالث الصّراع بين التصوّرات الوهميّة والضّرورات الاقتصاديّة

(1)

على الرّغم من أنّ الضّرورات الاقتصاديّة غير مرئيّة، إلّا أنّا الـمُنَظِّم الأكبر في العالَم الحديث.

(2)

إذا افتقرت الدّولةُ إلى الخبرة، وإذا كانت صارمة، وغير مسؤولة، وإذا كان موظّفوها لا مُبالين، فلن تكون قادرةً على التدخُّل في الأعمال التجاريّة المعقَّدة من دون أن تُفسدها.

(3)

تتسبَّبُ النّظريّات السيّاسيّة الـمُضَلِّلة أحيانًا في دمار لا يقلّ عن الدّمار الّذي تتسبّب فيه المدافع. فالتصوّرات الاشتراكيّة المتعلِّقة بالسِّلميّة، وبصراع الطّبقات، وبتدمير رأس المال، تُمثِّلُ الأسبابَ الرئيسة للأخطاء العسكريّة، والاقتصاديّة، الأخطاء التي كادت فرنسا ترزح تحت وطأتها.

(4)

ينسى غالبيّةُ النّاسِ القوانين الاقتصاديّة التي تقود العالَم، لذا يظلّون مقتنعين بأنّ الشّعارات الصّادِرة عن مخاوفهم أو عن رغباتهم يُمكن أن تُغيِّر مسار الأشياء.

(5)

تكمنُ واحدة من التّجارب الأكثر برهنةً على خطر انتهاك القوانين الاقتصاديّة في نتائج الضّرائب التي فُرِضَت في أثناء الحرب. الواقع أنّها أسهمت في الافتقار إلى الفحم، وإلى مختلف الأغذية.

(6)

تتوقّف الفعاليّةُ الـمُمكِنةُ لأيِّ شعبٍ على سلسلةٍ من العوامل المستقلّة عن رغباته، ومن أبرزها: نتاج أرضه، وعدد سكّانه، وبخاصّة مهارات عرقه.

(7)

إنّ شعبًا يرفض شراء الموادّ الأوّليّة الضّروريّة لمختلف الصّناعات من الخارج: القطن، والحرير، والفحم، إلخ، يحكم بالموت على صناعاته، وعلى تجاراته المرتبطة بها.

(8)

يُمكنُ تسهيلُ بعض صادراتِ السّلَع الكماليّة نتيجة التّعاطف الدّوليّ. أمّا الصّادرات المتعلِّقة بالموادّ الأوّليّة الضّروريّة، من مثل الفحم أو القطن، فإنّها تتوقّف على الحاجات الـمُلِحَّة التي تتفوّق على كلّ المشاعر.

(9)

الحقيقة أنّ المطالبة بقطع العلاقات التّجاريّة مع شعبٍ ما يُمكنه وحده أن يُزوِّد الـمُطالِب اقتصاديًّا ببعض المنتجات التي لا غنًى عنها يُشكِّلُ وهمًا خطيرًا. بعبارة أخرى، يُمكن القول إنّ مقاطعة الأشخاص مفيدة، أمّا مقاطعة البضائع الـمُصَنَّعة، والّتي غالبًا ما تكون ضروريّة من مثل الموادّ الأوّليّة، فمستحيلة.

(10)

الواقع أنّ القضاء على المخاطرة، وعلى المنافسة في المؤسّسات الصّناعيّة ـ كما لا يزال الاشتراكيّون اللاتينيّون يحلمون ـ يعني القضاء على كلّ تطوّر يُمكن أن تشهده الحضارة.

(11)

سيتطلّب استثمار ثرواتنا الصّناعيّة والزّراعيّة بعد الحرب تطوّرًا كبيرًا في الائتمان، تطوّرًا يستلزم لا مركزيّة ماليّة ستنجم عنها نهضة المصارف الإقليميّة القديمة التي جعلتها الشّركاتُ الكبرى تختفي. بإمكان هذه المصارف الإقليميّة وحدها أن تُقَدِّر قيمة الصّناعات المحليّة، ومن ثمّ أن تُقدِّر الاعتماد الّذي تستحقّه.

(12)

يُظهر تعدُّد النّصائح الّتي يُعطيها الـمُنَظِّرون لمعنى جهودنا المستقبليّة أنّهم يُعوّلون على رغباتهم أكثر ممّا يُعوّلون على الإمكانات الاقتصاديّة.

(13)

حقيقة الأمر أنّ الـمُنَظّرين باستمرارهم في بناء المجتمعات الخياليّة التي هي بنات العقل المحض، إنّما يعدّون العدّة لانحطاط الأمم التي ينتمون إليها.

(14)

يبدو تأسيسُ عصبةِ أمم أمرًا سهلًا، فعلى الرّغم من كلّ دروس التّاريخ، ما زلنا نفترض أنّ التّحالفات قادرة على الصّمود في وجه المصالِح الاقتصاديّة المتناقضة.

(15)

يتأتّى تأكيدُ الدّبلوماسيّين الألمان أنّ الدّول الصّغيرة يجب أن تختفي لصالِح الدّول الكبرى، يتأتّى من تصوّرٍ قديم دقيق لكنّه لا ينطبق على التطوّر الاقتصاديّ الحاليّ الّذي يشهده العالَم. الحقّ أنّ فدراليّةَ دولٍ صغيرة تحفظ استقلالها ممكنةٌ اليوم، في حين أنّ الاستمرار في ضمّها لا يُمكن أن يتمّ إلّا من خلال اضطهاد عسكريّ مُكلِف للغاية.

(16)

في ظلّ تطوّر الأفكار النّاجم عن ملاحظة الوقائع، ستظهر السّيطرة على الأراضي الأجنبيّة ـ الهدف الأساسيّ من الحرب الحاليّة ـ سريعًا بوصفها عمليّة تهديميّة في الحاضر، وعمليّة لا فائدة منها من أجل المستقبل.

(17)

الواقع أنّ تطوير الإنتاج، وإزالة كلّ العقبات ـ التي يسعى الاشتراكيّون إلى عرقلتهما ـ يجب أن يكونا الهدف الأساسيّ لمستقبلنا السّيّاسيّ.

(18)

قال رئيس وزراء بريطانيا العظمى في البرلمان إنّ مستقبل الشّعوب سيتوقّف على الدّروس التي سوف تستخلصها من الحرب. الحقيقة أنّ العالَم في طور الدّخول في مرحلة الحضارة، حيث تُعَدُّ أفعالُ الواهمين مُهْلِكةً شأنها شأن الغزوات الأكثر تدميرًا.

الفصل الرّابع دور الخصوبة

(1)

من الميكروب وصولًا إلى الإنسان، لعبَت الخصوبةُ على الدّوام سببًا للازدهار كي لا نقول للتفوّق. ففي حقبة الغزوات الألمانيّة الّتي دمّرت الحضارة الرّومانيّة، شكّلت خصوبةُ الغزاة التي لا تعرف الكَلل شرطَ نجاحهم المستمرّ. قُتِل الآلاف منهم لكنّهم كانوا يُبعثون على الدّوام.

(2)

كلّ شعب يتطوّر بشكل مُفرِط يُصبِح حتمًا غازيًا ومُدَمِّرًا للشّعوب التي لا تملك خصوبة عالية.

(3)

يُصبِح شعبٌ ما مخيفًا لجيرانه عندما لا تُزوّده أرضه بغذاءٍ كافٍ. الواقع أنّ الجوع يُشكِّل أصل الغزوات الكبرى التي زعزعت أوروبا قديمًا.

(4)

لو أنّ الجحافل الألمانيّة لم تحتشد، ذات مرّة، في أرضٍ غير قادرةٍ على إطعامهم، لما عرف العالَم تدمير الحضارة الرّومانيّة، ولا عرف ألف عام من العصر الوسيط، ولا عرف الحرب الحاليّة.

(5)

من الخطورة بمكان ألّا يزدهر شعبٌ إلّا ببطء من بعد أن تعاظم سريعًا. أثبتت الحربُ أهميّة الحقيقة هذه.

(6)

ينبغي للسِّلم ألّا ينسى الكلمات الآتية التي جرى التّصريح بها في الرايخستاغ: «لقد دُفِنَت المثل العليا البشريّة إلى الأبد. فنحن نُريد ما نحتاج إليه، وبخاصّة من الأرض، من أجل

إطعام أكبر قَدْر من النّاس».

(7)

الواقع أنّ الألمان، الّذين رأوا قبل الحرب، تحت تأثيرِ أسبابٍ شبيهةٍ بالأسباب التي مارست تأثيرًا في فرنسا، معدّل ولادتهم يبدأ بالتّنامي، لم يبحثوا عن علاجٍ له في الإجراءات الضّريبيّة، بل اعتبروا «أنّ سياسةَ رفع عدد السكّان هي قبل كلّ شيء سياسة استعمار الأرياف».

(8)

غدت المنافسة في مجال الخصوبة، بحسب بعض الاقتصاديّين، المثل الأعلى الذي ينبغي فرضُه على الشّعوب. الحقّ أنّ كلّ تاريخ الكائنات، من الحشرة وصولًا إلى الإنسان، وكلّ تاريخ الغزوات الألمانيّة، من التّاريخ القديم حتّى أيّامنا هذه، تُثبت أنّ الاكتظاظ السكّانيّ يُشكّل على الدّوام سببًا لحروب الإبادة، وللغزوات.

(9)

شدَّد داروين على القانون العام هذا، مؤكِّدًا ألّا استثناء له: تتكاثر الكائنات بنسبةٍ تجعل نسلَ زوجٍ واحدٍ من الحيوانات ـ أيًّا تكن ـ يجتاح العالَم سريعًا ما لم يُدَمَّر جزئيًّا في كلّ جيل. تُرغَم الكائنات البشريّة على الخضوع لهذا القانون عندما تتكاثر كثيرًا أو، على العكس، عندما يُدمِّر بعضها بعضًا، أو عندما تجتاح الدّول المجاوِرة لها.

(10)

تُمثِّلُ نوعيّةُ الشّعبِ عاملَ تقدّمٍ يتفوّقُ على كمِّه. لو كان الأمرُ بخلاف ذلك لأصبحت بلدان العالم الأكثر ازدحامًا بالسكّان، من مثل روسيا والصّين، على رأس الحضارة، عوضًا عن أن تبقى نصف بربريّة.

(11)

في الحضارات ذات النّمط الصّناعيّ، ينتمي النّجاح بقوّة ليس إلى الشّعوب الأكثر عددًا، بل إلى الشّعوب التي تعمل أكثر، والشّعوب الأكثر انضباطًا، والأكثر قدرة على بذل مجهودات جماعيّة، شريطة أن تمتلك في الوقت نفسه ما يكفي من الحديد والفحم.

(12)

الحقّ أنّ بلدًا كبيرًا يفتقر إلى الفحم لا يجد مصلحة في رؤية عدد سكّانه يتزايد. فإيطاليا، التي تفتقر إلى الفحم، لم تستطع أن تُصبِح دولة صناعيّة، ويبدو أنّه محتَّمٌ عليها أن تبقى فقيرة.

الكتاب الخامس عوامل سيكولوجيّة لقوّة الشّعوب

الفصل الأوّل دور بعض الخصال الثانويّة في حياة الشّعوب

(1)

ثمّة خِصال غير مستخدمة في بعض حقبات الحضارة، تُحَدِّد ازدهار أيّ شعبٍ عندما تسمح ظروف مستجدّة باستخدامها.

(2)

شكَّل التّفوّق الأدبيّ، والفنيّ، والذّهنيّ لدى بعض الحضارات، من مثل الحضارات اليونانيّة القديمة، وحضارة إيطاليّي عصر النّهضة، عناصر العظمة. أمّا الصّبر، والمثابرة، والامتثال للقوانين، فضلًا عن خصالٍ أخرى، نُظر إليها قديمًا على أنّها خصال متواضعة، تُشكِّل في الحضارات ذات الشّكل الصّناعيّ شروطَ نجاح.

(3)

الواقع أنّ العصرَ الحديث، مع تقنيته المعقّدة، وتقسيمه العمل، يستوجب خصال الصّبر، والعناية الفائقة، والدقّة، والجهد المتواصِل، والتّضامن، الخصال التي لن تستطيع الأعراق الفردانيّة، التي تمتلك ذكاء شديدًا، أن تُمارسها بسهولة.

(4)

يُعَدُّ شعورُ الاستمراريّة لدى أيّ شعبٍ عنصرَ استقرار يُكتسب ببطء شديد. ومع ذلك، لا يستطيع أيّ شعب أن يستمرّ وأن يتعاظم من دونه.

(5)

الحقّ أنّ قوّة الشّعوب الحديثة لم تعد تتوقّف على حكّامها، بل باتت تتألّف بخاصّة من تجمّع ملايين الجهود الفرديّة الصّغيرة. بعبارة أخرى، يغدو بلدٌ ما عظيمًا عندما يعمل كلّ مواطنيه على تحقيق عظمته. أمّا انهياره فيكون سريعًا عندما يتنازل للدّولة عن مبادراته وعن مسؤوليّاته.

(6)

لم تعد نجاحاتُ أيّ شعبٍ تتوقّف اليوم كثيرًا على قيمة حكّامه، أو حتّى على قيمة نخبه، بل باتت تتوقّف على بعض الخصال الثّانويّة التي يمتلكها غالبيّة المواطنين.

(7)

يُمكن الخصال الجماعيّة المتواضعة أن تحلّ، في بعض الأحيان، محلّ التفوّقات الفرديّة. فمع غبار الفردانيّات المتواضعة تمكّن الألمان من تكوين تجمّعات قويّة للغاية.

(8)

تتطلّب قوّة أيّ شعب خصالًا مشتركة تتمتّع بها غالبيّة هذا الشّعب. الواقع أنّ تفوّق النّخب لا يكفي من أجل تحديد عظمته.

الفصل الثّاني الإرادة والجهد

(1)

الواقع أنّ معركة المارن، التي أنقذت باريس من الدّمار، ومثّلت أهمّ حدث في حياتنا الوطنيّة، هي مثال لا يُنسى عن دور إرادة النّاس المهيمن على أقدار التّاريخ المحتومة.

(2)

لعلّ أكثرَ اكتشافات السّيكولوجيا الحديثة خصوبةً إظهارُ أنّ فعاليّتنا الواعية تُشكّل التجلّي السّطحيّ للفعاليّة اللا واعيّة التي تُعَدّ أكثر أهميّة بكثير.

(3)

يُمكنُ الإرادةُ أن تكون واعية أو لا واعية. في ما يتعلّق بالإرادة اللا واعية، يصل القرار إلى حقل اللا وعي وقد اتّخذ بشكل كامل. أمّا الإرادة الواعية، فعلى العكس، تكون مسبوقة بمشاورة، ومن ثمّ، بتقويم الدّوافع.

(4)

غالبًا ما ينطوي القرارُ الإراديُّ الأكثر تفكّرًا على جزء من الإرادة اللا واعية الّتي إن لم تُسهِم في ولادة هذا القرار، فعلى الأقلّ أسهمت في تقويته، وفي تمتينه. عندما أعلن رئيس الولايات المتّحدة الحرب على ألمانيا، من المحتمل، وفق ميزان الدّوافع الّذي نَزِنُ فيه قراراتنا، أن تكون هناك جملة عوامل أثّرت في قراره، من مثل فائدة الجيش في حال الصّراع مع المكسيك أو اليابان، والدّور الكبير الّذي يتعيّن على الولايات المتّحدة أن تلعبه في الشّؤون العالميّة، إلخ. من جرّاء مجموعة الدّوافع هذه، ينتهي الأمر بتشكّل الإرادة العدوانيّة.

(5)

إذا وُجِد في بعض الأحيان تباين بين أفعال الإنسان وأقواله، فذلك لأنّ الإرادة اللا واعية يُمكن أن تختلف تمامًا عن الإرادة الواعية التي تخلقها التّأثيرات السّطحيّة. لقد شاهدنا هذا الأمر في بداية الحرب، عندما تصرّف السِّلميّون والاشتراكيّون بطريقة تتعارض مع عقائدهم.

(6)

حقيقة الأمر أنّ الإرادة اللا واعية، التي خلقها الأسلاف، وعزّزتها من ثمّ التّربية وتأثيرات البيئة، هي التي تُوجِّه الأفعال. تُوَجِّه الإرادةُ اللا واعيةُ الخطابات على وجه الخصوص.

(7)

لا تتحدّدُ مكانةُ الإنسانِ في الحياة استنادًا إلى ما يعرفه، بل استنادًا إلى ما يُريده، وإلى ما يستطيع القيامَ به.

(8)

تُسيطر الحوادث على الإرادات الضّعيفة. على العكس، تُسيطر الإرادات القويّةُ على الحوادث.

(9)

لكي نتقدَّم، لا يكفي أن نرغب في التصرّف، بل ينبغي لنا، بداية، أن نعرف بأيّ معنًى نتصرّف.

(10)

الحقّ أنّ التبصّرَ أندرُ بكثير أيضًا من الإرادة.

(11)

أيقظت الحربُ في فرنسا الطّاقات القديمة. الواقع أنّ وضعنا الاقتصاديّ في العالَم سيتوقّف على استمراريّة جهودنا في خلال السِّلم.

(12)

حقيقة الأمر أنّ الرّجل المقدام إمّا أن يكون بنّاء أو هدّامًا، وذلك تبعًا لاتّجاه جهوده.

(13)

يُولَد التقدّم من جرّاء استمراريّة الجهد، أمّا الانحطاط فيولَد من جرّاء الرّاحة.

(14)

الوسيلة الوحيدة للحصول على استمراريّة الجهد هو في تحويل هذا الجهد إلى عادة عن طريق تربية مناسبة. الواقع أنّ نتيجة كهذه لا يُمكن الحصول عليها عن طريق التّعليم الكتبيّ.

(15)

الجهد المستمرّ هو خالق المعجزات الفعليّ. بفضله، استطاع بلد مثل بريطانيا، غير مقتدرٍ عسكريًّا، أن يُكوِّن جيشًا من أربعة ملايين مقاتل، وأن يُحوِّل كلّ شروط وجوده.

(16)

في الحروب الحديثة، التي تنعدم فيها المناورات الكبرى، يُنظِّم الذّكاءُ التّحضير، لكنّ استمراريّة جهد المقاتلين شرط ضروريّ للنّجاح.

(17)

سوف يقودُ التطوّرُ القادمُ للعالَم الشّعوبَ إلى التّعويل قليلًا على تحالفاتها، في مقابل التّعويل كثيرًا على جهودها الخاصّة. أمّا وقد عرفتِ الشّعوب هذه القيمة الضّعيفة للحقّ غير المقرون بالقوّة، فبات لزامًا عليها أن تكتسب القوّة الضّروريّة لكي لا تُصبح ضحيّة على الإطلاق.

(18)

الواقع أنّ التّقاعس المحزِن لبعض النّاس المتمرّدين على كلّ جهد لا يختلف كثيرًا عن راحة القَبر. فهؤلاء الموتى الأحياء لا يملكون من الحياة إلّا ظاهرها.

الفصل الثالث التكيّف

(1)

يحكمُ قانونُ التكيّف كلّ الكائنات. فالتحوّل عن طريق التكيّف أو الاختفاء ضرورةٌ عالميّة.

(2)

كما أنّ كلّ تغيّرٍ مُناخيّ يُؤدّي إلى تحوّل عميق في النّباتات والحيوانات، كذلك كلّ تغيّر اقتصاديّ، أو دينيّ، أو سياسيّ، أو اقتصاديّ يتطلّب من ذهنيّة الشّعوب الخاضعة لفعله تكيّفًا جديدًا.

(3)

تُعَدُّ العدوى الذّهنيّة قوّةَ تأثيرٍ فاعلة. نحن نمتثلُ بشكلٍ لا واعٍ للتغيّرات المقبولة من المحيط. لكنّ الصّعوبة تكمن في إيجاد أولئك الّذين سيكونون قدوةً لها.

(4)

الواقع أنّ الحياة العقليّة مرهونة بتأثيرين أساسيّين، تأثير المحيط القديم، حيث تحتفظ الوراثةُ ببصمتِها، وتأثير المحيط الرّاهن الّذي يُحوّل الكائنات تدريجيًّا. هذان التّأثيران ضروريّان، لكنّ أيَّ تقدّم مستحيل إذا شلّت قوّة أحدهما الآخر.

(5)

حقيقة الأمر أنّ استقرار روح شعب، الّتي تُشكّل قوّته في الحياة العاديّة، قد تُعيقه في بعض الأحيان حيث يغدو التكيّف السّريع ضروريًّا. تلكم كانت حالة إنجلترا التي احتاجت إلى أكثر من عام، بعد إعلان الحرب، لكي تتكيّف مع شروط وجودها الجديدة بالتّمام.

(6)

الحقّ أنّ التكيّف السّريع صعبٌ، ذلك بأنّ الإنسان إذا حوَّل وسائل عيشه بمشقّة، فإنّه يُغيِّر بصعوبة أكبر أيضًا وسائل تفكيره.

(7)

ينحطُّ أيّ شعبٍ من الشّعوب عندما تكون بنيته الاجتماعيّة مُتشدِّدة جدًّا لكي يمتثل لشروط وجوده الجديدة. لعلّ أحد الأسباب الأكثر تواترًا لانهيار الإمبراطوريّات الكبرى هو هذا العجز عن التكيّف مع الضّرورات غير المتوقّعة الّتي ولّدتها الظّروف المستجدّة.

(8)

لا يستطيع أيّ شعبٍ أن يمتصّ إلّا كميّة محدودة من الحضارات.

(9)

لعلّ أكبر المخاطر الّتي تُهدِّد مجتمعًا هو أن ينطوي على عددٍ كبيرٍ من الأفراد الّذين يرسفون عند مراحل التطوّر الدُّنيا، ومن ثمّ، يتكيّفون بشكل سيّئ مع وضعيّة هذا المجتمع الحاليّة.

(10)

الحقّ أنّ العصر الحديث سيُصبِح أكثر فأكثر قسوة مع غير المتكيّفين، ذلك بأنّ الضّرورات الجديدة ستُقصي سريعًا هؤلاء النّاجين من العصور المفقودة.

الفصل الرّابع التّربية

(1)

يتصرّفُ النّاسُ وفق ما تمليه عليهم شخصيّتهم أكثر بكثير ممّا يمليه عليهم ذكاؤهم. لذا وجب أن ينصبّ هدفُ التّربية على تدريب الشّخصيّة هذه. يعرف الألمان جيّدًا هذه الحقيقة، في حين يبدو أنّ جامعتنا تجهله جهلًا تامًّا.

(2)

يُمكنُ التّربيةُ أن تغرس في التّلميذ روح التّضامن من خلال جعله يكترث بنجاحات صفّه أكثر من اكتراثه بنجاحه الخاصّ. عندئذ يعي أنّه من الأفضل له أن يرتبط بمنافسيه عوضًا عن محاربتهم. الحقّ أنّه جرى تجاهل هذا المبدإ كثيرًا في فرنسا، مع العلم أنّه يُشكّل عنصرًا من عناصر قوّة ألمانيا الاقتصاديّة.

(3)

الواقع أنّ التّعليم التقني، والانضباط في المدرسة، ومن ثمّ في الثّكنة، والقدرة على بذل جهد جماعيّ، كلّ ذلك جعل سهلًا على الألمان التّنفيذ الدّقيق للعمل الموكل إليهم. ليس أستاذ المدرسة، بل التِّقنيّ هو الّذي يسمح بتوسّع ألمانيا الصّناعيّ.

(4)

لخّصَ عالِمٌ بإتقان حال تربيتنا التقنيّة إذ كتب يقول: «أرغمتنا الحرب على أن نخلق أدوات كيميائيّة مذهلة، في حين أنّنا رفضنا أن نُطوِّر في زمن السّلم أداة بدائيّة، الأمر الّذي جعل منافسينا يُشفقون علينا».

(5)

نفهم فائدة التّعليم التّقنيّ على أنّه أبعد ما يكون عن الاهتمام بالتّعليم الزراعيّ. يؤكّد المختصّون أنّنا إذا حصلنا من الهكتار الواحد على نفس العائد من الحبوب الّذي تحصل عليه ألمانيا، فإنّ ثروتنا السّنويّة ستزداد بمعدّل مليارَيْن.

(6)

في فرنسا، تبقى الزّراعة واحدةً من المهن الّتي لا تحظى بتقدير كبير، في حين أنّها تتطلّب معارف أكثر تنوّعًا شأنها شأن المهن الأخرى. في هذا السّياق، قال وزير إنجليزيّ: «الرّجل الّذي يعرف كيف يُدير مزرعةً بشكل جيّد، يكون قادرًا على إدارة إمبراطورية الهنود»(17).

(7)

الواقع أنّ إصلاح التّعليم الصّناعيّ والتّجاريّ، الّذي عُدَّ ذا فائدة كبيرة في إنجلترا، أمرٌ ضروريّ جدًّا في فرنسا، لكنّه سيلقى لفترة طويلة معارضةً من قِبَلِ جامعةٍ تدّعي أنّها تُدير كلّ شيء، ناهيك بكونها متمرِّدة على كلّ التّغييرات.

(8)

حقيقة الأمر أنّ استعمال السّوط في المدرسة، والعصا في الثّكنة، جعلا الألمان قادرينَ على الخضوع، من دون نقاش، لأوامر قادتهم. فالطّاقة، التي جرى تطويرها في أثناء الحرب من قِبَل شعوبٍ كانت تجهل هذه الإجراءات، تُثبِتُ أنّ النَّفس البشريّة يُمكن أن تنضبط باستخدام طرائق أقلّ عبوديّة.

(9)

أكَّد وزيرُ حربٍ بروسيّ، في خضمّ الصّراع الحاليّ، أنّ الهدف من الإعداد العسكريّ للشّباب في المدرسة ينبغي ألّا ينصبّ على جعلهم أكثر قوّة وحسب، بل «ينبغي أيضًا أن يكبح جماح روح الاستقلال الفرديّ وروح المبادرة اللّذين يُهَدِّدان بالتّراجع إلى ذاتيّة مُذيبة من شأنها أن تقضي على الديمقراطيّات». الواقع أنّ المبادئ هذه ليست ضروريّة إلّا من أجل إعداد جنود مُستعدّين للتّضحية من أجل طموحات الحاكم.

(10)

إذا أمكن المساواة الديمقراطيّة أن تتحقّق، فذلك عن طريقِ نظامٍ تربيةٍ يستثمر القدرات الخاصّة لكلّ فرد، وليس عن طريق المؤسّسات السّياسيّة.

(11)

تكمن واحدةٌ من قوى التّربية الألمانيّة في معرفتها كيفيّة الاستفادة من المهارات المختلفة لكلّ تلميذ، وذلك بفضل أساليب التّعليم المختلفة. في المقابل، يكمن واحدٌ من أسباب الضّعف في التّربية اللاتينيّة في تعليمها المتشابِه الّذي تُطبِّقه على ذهنيّات مختلفة.

(12)

ينبغي ألّا ينصبّ هدفُ التّربيةِ على تسميع الكتب المدرسيّة، بل على خلق عادات التّفكير والشّخصيّة. فالتّعليم المتعلّق بالذّاكرة الّذي تنتهجه جامعاتنا يُطوِّر الذّكاء قليلًا، لكنّه لا يُطوِّر الشّخصيّة البتّة. وذلكم ما لم يفهمه بعد الأساتذة، والآباء، والتّلاميذ.

(13)

من المحال إجراء أيّ تحسين في مجال التّربية في فرنسا، إذا ظلّ هذا المجال مُدارًا من قِبَل جامعيّين لا يعرفون العالَم إلّا انطلاقًا من كتبهم.

(14)

إنّ تربيةً محضَ عقليّةٍ تُصبِحُ سريعًا سببًا للانحطاط.

(15)

لا تُزوّدنا النّظريّات الكتبيّة إلّا بتصوّرٍ مُشوَّهٍ عن العالَم، تصوّر لا علاقة له بدروس التّجربة.

(16)

يرى الإنجليز، وبحقّ، أنّ بعض الألعاب المدرسيّة تُعِدُّ المتعلّمين للحياة بشكل مفيد للغاية. في الواقع، يترتّب على إنشاء فريقٍ رياضيّ ما يلي: تعاون، وتراتبيّة، وانضباط، وصفات ضروريّة لأيّ مجتمعٍ يريد أن يتطوَّر.

(17)

سوف يكمنُ واحدٌ من الإصلاحات المستقبليّة الضّروريّة في غرس احترام الانضباط في نفوس كلّ الشّباب الفرنسيّين. فقد أصبح الانضباطُ معدومًا في العائلة، وفي المدرسة، وفي الإدارات، وفي مخازن الأسلحة، وختامًا في كلّ مكان.

(18)

لا يُحسِنُ الإنسانُ السّيطرةَ على نفسه من دون وجود قوانين ترغمه على ذلك، لكنّ هذا الانضباط المفروض عليه لا يُساوي على الإطلاق الانضباط الدّاخليّ الّذي يُمكن أن تؤمِّنَه

التّربية.

(19)

الواقع أنّ إصلاح النّظام التّربويّ سيُشكّل المهمّة الأكثر إلحاحًا بعد الحرب. على الرّغم من أنّ العقول المتنوِّرة جهدت بغير طائلٍ في تغيير جامعتنا، فإنّه ينبغي لنا ألّا نيأس على الإطلاق من إمكانيّة تحقيق النّجاح، لا سيّما إذا تفكَّرنا في أنّ الكوارث الكبرى هي التي تُوَلِّد الإصلاحات التي لا تستطيع كلّ الخطابات في زمن السِّلم أن تحصل عليها.

(20)

إنّ تربيةً قادرة على تنمية ملكة الحكم والإرادة تربيةٌ مميَّزة، أيًّا تكن الأشياء التي يجري تدريسها. فبمعيّة هذه الصّفات وحدها، يعرف الإنسان كيف يتحكّم بمصيره.

(21)

الفهم أفضل بكثير من التعلُّم.

(17) إشارة إلى سلطنة مغول الهند باللغة الأردويّة: وهي إمبراطورية إسلاميّة أسّسها ظهير الدين بابر، واستمرّت قائمة لما يقرب من 300 سنة، وبالتحديد 1526م حتى 1858م. انظر ويكيبيديا (المترجم).

الفصل الخامس الأخلاق

(1)

من بين أسباب قوّة أيّ شعب، تبرز في المقام الأوّل درجةُ أخلاقه. فعندما وجدت روسيا نفسها من دون ذخائر ولا أغذية، من جرّاء خطإٍ ارتكبه عدد من الوزراء، والجنرالات، والبيروقراطيّين الفاسدين، فهِمت بوضوح دور الأخلاق في حياة الأمم.

(2)

إنّ أخلاقَ أيّ شعبٍ هي نتاجُ ماضيه. يخلق الحاضر فضائل المستقبل. فنحن نعيش بفضل أخلاق آبائنا، وأولادنا سيعيشون بفضل أخلاقنا.

(3)

بادئ ذي بدء، تكونُ كلّ قاعدة أخلاقيّة جِينةً(18)، وإكراهًا ينبغي أن يُفرَض. التّكرارُ وحدَهُ يجعل منها عادة مقبولة بيُسرٍ تام.

(6)

تُعطي أخلاقٌ تجاريّةٌ راقيةٌ أيَّ شعبٍ تفوّقًا على منافسيه الّذين لم يبلغوا درجة الأخلاق عينها. على سبيل المثال، عندما يُدَوِّنُ ناشرٌ على غلاف كتابٍ قديمٍ تاريخًا حديثًا لكي يخدع المشتري، أو عندما يقوم مُصَنِّعٌ شهير بجودة منتجاته بوضع علامته التّجاريّة على أداةٍ رديئة، إنّما يُشجّعان المنافسين الأجانب الّذين يُحَدِّثون إرشاداتهم باستمرار، ويتحقّقون من أدواتهم.

(7)

الواقع أنّ الحرب الحاليّة ستُثبِت أنّه حتّى في السياسة، تُعَدُّ النّزاهةُ ضروريّةً. فألمانيا تعرف جيّدًا اليوم كم كلّفها انتهاك التزاماتها تجاه بلجيكا. كان ينبغي للوزراء الرّوس، الّذين خانوا وطنهم، وتسبّبوا في الكوارث التي أفضت إلى قيام الثّورة، أن يُفكّروا بجديّة، من داخل زنزاناتهم، في مزايا الاستقامة.

(8)

طالما أتينا على ذكر الاشتراكيّين الرّوس كإثبات على انعدام ذكاء الجماهير. الحقّ أنّهم خطّطوا للتخلّي عن الحلفاء، مع العلم أنّ الحلفاء لم يدخلوا الحرب إلّا من أجل الدّفاع عن روسيا، ولم يعوا أنّ مشاريعَ كهذه ألحقت العارَ ببلدهم، وَولّدت تجاهه ريبةً قد تمنعه في المستقبل من إيجاد حلفاء له.

(9)

النّزاهة الـمُتَعَقَّلَة هي الحكمة، لكن بمجرَّد تعقّلنا إيّاها تنزع إلى ألّا تكون نزاهةً.

(10)

لعلّ النّتيجة الأكثر وثوقًا من نتائج المناورات الدبلوماسيّة الألمانيّة هي أنّ المناورات هذه تسبّبت في توليد ارتيابٍ عالميٍّ منها. لقد دمَّرت في العالَم كلّ ثقة في خطاباتها. الحقّ أنّها ستعاني طويلًا من الارتياب هذا الّذي سيغدو منذ الآن فصاعدًا عصيًّا على الإصلاح.

(11)

حقيقة الأمر أنّ الألمان باحتقارهم القوانين الأخلاقيّة في أثناء الحرب، باسم نظريّاتهم الفلسفيّة، سيتسبّبون لا إراديًّا في تكوين أخلاق عالميّة. ذلك بأنّ الشّعوب باتّحادها لكي تُدافع عن نفسها، شدَّدت على المبادئ التي تُناضل من أجلها. وإذا كانت المبادئ هذه، في ما مضى، غامضة قليلًا، فإنّ الأمر سينتهي بها إلى الترسّخ في النّفوس، وإلى إلهامنا التزامًا عالميًّا لن نجرؤ البتّة على انتهاكه.

(12)

وفقًا للفلاسفة الألمان، فإنّ الأخلاق الّتي تحكم العلاقات بين الأفراد لا تنطبق على الدّول. الواقع أنّ الحكّام، بوصفهم حكّامًا مُطلقين، لا يلتزمون بأيّ معاهدة. لذا لا يُمكننا أن نولي سوى ثقة محدودة بالعقود المستقبليّة التي تُبرَم مع بلدٍ يعتنق مثل تلك المذاهب.

(18) مُوَرِّثة الصِّفات في الخَلِيَّة. (المترجم).

الفصل السّادس التّنظيم والكفاءة

(1)

ينجم التّنظيم ببساطة عن تطبيق المبادئ المُهَيمِنة على كلّ العلوم: تفكيك العناصر الّتي تُوَلِّد الظّاهرة، ودراستها بصورة منفصلة، والبحث عن تأثير كلّ واحد منها. إنّ طريقةً كهذه تستتبع تقسيم العمل، والكفاءة، والانضباط.

(2)

مِنَ الإسكندر إلى يوليوس قيصر وصولًا إلى نابليون، كلّ تلك العقول المتفوِّقة، كلّ هؤلاء الأبطال كانوا منظّمين كبارًا. لم يكتفِ كلّ واحدٍ منهم ـ إذ لم يُعوزهم حسن التّنظيم ـ بوضع القوانين وحسب، بل حرصوا جيّدًا على تطبيقها. في هذا التّطبيق ترقدُ صعوبة التّنظيم.

(3)

الحقّ أنّ التّنظيم مُحال إذا كان كلّ شخص، وكلّ شيء، لا يشغلان مكانيهما الصّحيحين. للأسف يتطلّب تطبيق الحقيقة الأساسيّة هذه تبصّرًا يندر أن نجده لدى بعض الشّعوب.

(4)

تتوقّف قيمة أيّ تنظيم على القائد الّذي يُشرِف على تطبيقه. حقيقة الأمر أنّ الجماعات قادرةٌ على التّنفيذ، لكنّها غير قادرة على القيادة، وعلى الخلق والابتكار.

(5)

حقيقة الأمر أنّ عادات العمل الجماعيّ والانضباط التي طُبِّقت على تنظيم الرعاية الاجتماعيّة، والتّأمينات، والمعاشات التقاعديّة، والتربية التقنية، قدّمت خدمات جليلة للألمان. فتنظيمهم التَّمَرُّن، على سبيل المثال، حال دون نشوب أزمة يدٍ عاملة لديهم على غرار الأزمة التي هدّدت فرنسا كثيرًا.

(6)

يبدو أنّ غياب تنسيق الخدمات هو النّقيصة التي تُعاني منها الإدارات اللاتينيّة، والّتي يتعذّر اختزالها. الحقّ أنّ أجيالًا من الوزراء جهدت حقًّا في معالجة هذه النّقيصة. بيد أنّ النّقيصة هذه استفحلت إلى درجةِ أنّ شارعًا في باريس جرى نزع بلاطه وتبليطه مجدّدًا من ثلاث إلى أربع مرّات في خلال شهرٍ واحد، لأنّ مسؤولي خدمات الغاز، والماء، والكهرباء لا يُمكن أن يوافقوا على إجراء هذه العمليّة دفعةً واحدة. شاهدنا في أثناء الحرب مندوبين رسميّين، أرسلهم وزيران إلى أميركا، يتنافسون في ما بينهم من أجل شراء الخيول نفسها. وبالنّظر إلى عدم وجود اتّفاق مُسبق، دفعوا أربعة أضعاف ثمن الخيول الحقيقيّ.

(7)

حقيقة الأمر أنّ مضاعفة أعمال الرِّقابة في خدمة عامّة يعني تشتيت المسؤوليّات إلى حدّ أنّها تتلاشى. فالعمل الّذي تجري مراقبته من قِبَلِ عددٍ كبيرٍ من الأشخاص لا يُراقَب بشكل جيِّد أبدًا.

(8)

لا تعود القيمة الضّعيفة لتنظيم الخدمات العامّة في بعض البلدان إلى عدم اكتراث الموظّفين، وإلى خوفهم من تحمّل المسؤوليّات وحسب، بل تعود كذلك إلى كون الحظوة تحلّ محلّ الكفاءة.

(9)

يبدو أنّ الأمريكيّين امتلكوا جيّدًا كلّ أسرار التّنظيم. فقد أوضح مهندسهم الأكبر السيّد تايلور أنّه بات بإمكانهم، في ما يتعلّق بغالبيّة الأعمال المصنعيّة ـ مع استبعاد الجهود غير المجدية بصورة منهجيّة ـ أن يحصلوا على النّتائج نفسها ببذل جهودٍ أقلّ بكثير من الجهود التي كانت تُبذَل. الواقع أنّ عددًا كبيرًا من المصانع باتت تُنظَّم اليوم وفقًا لهذا المبدأ.

(10)

الحقّ أنّ الضّرورة سرعان ما تُصبِح عاملَ تنظيم. أن تتفوَّقَ روحُ المنهج التي يشتهر بها الألمان على الرّوح الّتي سمحت للإنجليز بتكوين جيشٍ مؤلَّفٍ من أربعة ملايين جنديّ مع ضبّاطهم، وذخائرهم، وكلّ التّجهيزات المعقَّدة للحرب الحديثة، في غضون عامين اثنين، فتلكم لعمرنا مسألة محلّ شكّ كبير.

(11)

يعودُ واحدٌ من أسباب ضعفنا الاقتصاديّ والحكوميّ إلى استبعاد الصِّناعيّين من قِبَل حكومتنا أو التّعامل معهم بوصفهم مشتبهًا بهم. حقيقة الأمر أنّ ضرورات الحرب جعلت إسهامهم أمرًا لا مناص منه. وجبَ علينا أن نُلاحظ أنّ المشكلات المعقّدة حُلَّتَ بفضلهم بسهولة. علاوة على ذلك، إذا لم يعملوا دائمًا بالسّرعة المطلوبة، فذلك لأنّ عدم الكفاءة المذهلة للمكاتب الإداريّة أعاقت عملهم باستمرار.

(12)

سيكون مُفيدًا أن تُنشَر المقابلةُ، التي أجراها مدير عام الشؤون الغذائيّة في أميركا، في بعض المكاتب، لا سيّما أنّ التّنظيم كان فاسدًا للغاية في أثناء الحرب.

«لا تحتاج الشّؤون الغذائيّة إلى ديكتاتور، بل تحتاج إلى إدارة حكيمة. لا أخالُ أنّ عملَ الإدارة هذه يكمن في المراسيم القاسية، وفي التّفتيش التّعسفيّ، بل يكمن في الوفاق المتجانِس، والتّآزر الفَطِن بين ثلاث مجموعات معنيّة بهذه الشّؤون: المنتجون، والموزِّعون، والمستهلِكون. سيُختَار مُستشاريّ من بين المجموعات الثلاث هذه، وليس من بين الـمُنَظِّرين أو البيروقراطيّين». أيّ هاوية تفصل بين الذّهنيّة الّتي خطّت هذه السّطور، وحكّامنا!

(13)

لاحظت روسيا، عمليًّا، أنّ تنظيم بلدٍ ما، ولو كان هذا التّنظيمُ بسيطًا، يحتاج إلى وقت طويل لكي يتكرّس، ولا يُمكن أن يُرتَجل ارتجالًا. لا يكتسبُ هذا التّنظيم قيمة إلّا بعد أن يترسَّخ في النّفوس.

(14)

لا يبدو الإفراطُ في التّنظيم مفيدًا دائمًا للتقدّم. انتهى الأمر بالتّنظيم الدّقيق للصّين إلى شلّ كلّ المبادرات، وقادها إلى حالةِ عجزٍ لن تستطيع الخروج منها أبدًا.

(15)

إنّ بلدًا يحكمه الرّأي لا يُمكن أن تحكمه الكفاءة.

(16)

يُمكنُ العدد أن يخلق السّلطة، لكنّه لا يخلق الكفاءة.

(17)

يكمن واحدٌ من عناصر تفوّق الصّناعة على الإدارات العامّة هو أنّ الكفاءة يجري تفضيلها على التراتبيّة، وعلى الحظوة.

(18)

الكفاءة من دون سلطة هي أيضًا عاجزة شأنها شأن السّلطة من دون كفاءة.

(19)

تُصبِح الكفاءةُ غير فعّالة منذ اللحظة الّتي توضَعُ فيها تحت إمرة عدم الكفاءة.

الفصل السّابع التّماسك الاجتماعيّ والتّضامن

(1)

لا تكفي الأسلحة من أجل تكوين قوّة أيّ شعب. تكمن هذه القوّة، على وجه الخصوص، في التّماسك الذّهنيّ الّذي يخلقه اكتساب المشاعر المشتركة، والمصالَح المشتركة، والمعتقدات المشتركة. إذا لم تستقرّ هذه العناصر بفعل الوراثة، فإنّ وجود أيّ أمّة يبقى عابرًا، وتحت رحمة كلّ الفُرَص.

(2)

الحقّ أنّ تأثير النّظام الاجتماعيّ، وإن كان غير مرئيّ، هائلٌ في حياتنا اليوميّة. فهو يُوَجِّه أفكارنا وأفعالنا أكثر من كلّ الاستدلالات.

(3)

يُحافظ أيّ مجتمع على نفسه من خلال توازن مصالِح أعضائه. عندما ينعدم هذا التّوازن، تُطلَق الغرائز والكراهيات ـ الّتي ينطوي المجتمع عليها من جرّاء الكوابح الاجتماعيّة الّتي تكوّنت ببطء ـ من عِقالها. وعليه، تتبدَّل السّلطةُ باستمرار، وتستمرّ الفوضى إلى اليوم الّذي تغدو فيه سلطةٌ ما قويّة للغاية، وقادرة على إعادة النّظام، عندئذٍ تُصبِحُ مطلبًا عالميًّا.

(4)

في غياب المجتمع الإثنيّ، فإنّ الإيمان بنفس المثل الأعلى الدينيّ، أو السياسيّ، أو الاجتماعيّ، يُمكن أن يُوَلِّد لدى شعبٍ ما هويّة الأفكار والسّلوك الضّروريّة من أجل الحفاظ على وجوده.

(5)

حقيقة الأمر أنّ توحّد الأحزاب السياسيّة ضروريّ لأيّ بلد لكي يُواجِه عَدوَّه. لو أنّ الانقسامات الّتي قادتنا إلى حافّة الهاوية وُلِدَت بعد الحرب، لرأينا فرنسا مُهَدَّدةً بانحطاطٍ لا يُمكن تجاوزه.

(6)

لن يكونَ من غير المجدي أن نتذكّر، من خلال نقشٍ محفورٍ على سور البرلمانات، كيف انتهى الأمر بالشّعوب التي لم تعرف كيف تتخلّى عن صراعاتها الدّاخليّة، كما حصل مع اليونانيّين قديمًا ومع البولنديّين لاحقًا، إلى العبوديّة، وكيف خسرت حتّى حقّها في امتلاك تاريخٍ خاصٍّ بها.

(7)

يسعى أيُّ حزبٍ سياسيٍّ، ينزع إلى أن يكون مفيدًا، إلى أن يُثبِت للجماهير أنّه ينبغي لاندماج الطبقات أن يحلّ محلّ المنافسات القائمة بينها. عبثًا سعى السّاعون زمنًا طويلًا إلى تحقيق هذا الهدف. بيد أنّ الاندماج قد يغدو ممكنًا إذا تمّت البرهنة عمليًّا على فوائد الاتّحاد.

(8)

استبدلَت حياةُ الخنادق علاقات المودّة والانضباط غير المتصلِّب بالعلاقات غير الشّخصيّة والباردة بين مختلف الطّبقات الاجتماعيّة. عندما يتعارف النّاس، يُلاحظون سريعًا أنّهم مُتساوون في كثير من النّقاط، وأنّ الاختلافات ذات المنشإِ الكُتبيّ لا قيمة لها.

(9)

حقيقة الأمر أنّ العواطف الجماعيّة النّاجمة عن حربٍ امتدَّ أمدُها تُقرِّبُ النّاسَ الّذين يتشاركونها. فهي تخلق بينهم تضامنًا قادرًا على الاستمرار إلى حين زوال هذه العواطف.

(10)

أمّا الشّعوب التي لم يترسّخِ التّضامنُ في وجدانها بفعل الحرب فسوف يرون حتمًا أنّ اللجوء إلى الصراعات العسكريّة هو الحلّ الأنجع في ما يتعلّق بالمعارك الاشتراكيّة، والمعارك الاقتصاديّة، وبجملة معارك كثيرة أخرى.

(11)

الواقع أنّ التّضامن المؤسَّس على المصلحة يملك أُسًّا صلبًا. أمّا التّضامن المؤسَّس على الأخوّة أو المحبّة فغالبًا ما يكون هشًّا. إلى ذلك، تُدين أميركا بالكثير من تقدّمها الاقتصاديّ إلى المجموعات ذات المصالِح المتماثلة.

(12)

لن تتأتّى التحوّلاتُ الاجتماعيّةُ المفيدةُ عن النظريّات الاشتراكيّة الحاليّة، بل من تضامنٍ لا يعرفُ عقيدةً إذ من شأنه أن ينشغل على وجه الخصوص ببلورة وجود كلّ شخص انطلاقًا من تربية تتكيّف جيّدًا مع الحاجات الجديدة، وانطلاقًا من أشكال تجمّع مختلفة.

(13)

إذا توصَّلت كلمة تضامن إلى أن تحلّ محلّ كلمة اشتراكيّة، فما من شكّ في أنّ تقدُّمًا كبيرًا سيتحقّق، ذلك بأنّ قوّة الكلمات تتفوّق بصفة عامّة على قوّة العقائد.

(14)

يبدو من غير ذي طائل أن نعظ النّاس، ونقول لهم إنّهم أُخوة، فكلّ واحدٍ منهم يعلم جيِّدًا أنّهم ليسوا كذلك. ومن غير المجدي أيضًا أن نحضّهم على الصّراعات الطبقيّة، إذ من شأن الصّراعات هذه أن تُفضي إلى تدمير متبادَل. ينبغي لنا، بكلّ بساطة، أن نُثبِت لهم أنّهم يملكون مصلحة مشتركة في أن يُساعِد بعضهم بعضًا من خلال توحيد جهودهم.

الفصل الثّامن الثّورات والفوضى

(1)

الثّورات الأكثر صعوبةً هي الثّورات على العادات، وعلى الأفكار.

(2)

لعلّ الثّورة الأكثر عمقًا، من بين كلّ الثّورات، هي تلك الّتي قامت بها إنجلترا عندما قبلت في أثناء الحرب، خلافًا لتراثاتها العريقة، أن تضع كلّ السّلطات بين يَدَي الدّولة، وأن تمنحها حقًّا مطلقًا على حياة المواطنين وعلى ثروتهم. تحقّق هذا الانقلاب من دون أيّ فوضى، ذلك بأنّه مَثَّل نتاجَ كلّ الأحزاب، وليس نتاجَ شخصٍ واحدٍ على غرار ما حصل في الثّورات السّابقة.

(3)

إنّ التّسبُّبَ في اندلاعِ ثورةٍ أمرٌ سهلٌ على الدّوام، بيد أنّ جعلَ أمدِها يطول أمرٌ في غاية الصّعوبة.

(4)

الإطاحة بمستبدٍّ لا تعني على الإطلاق الإطاحة بالنّظام الاستبداديّ. فثمّة آلاف من الحكّام المستبدّين المتخّفين وغير المسؤولين، والضّروريّين من أجل إدارة أيّ بلد، يستمرّون في امتلاك السّلطة الحقيقيّة. يُمكنُ النّظامُ أن يُغيِّرَ اسمَه، لكنّ الحكّام المتخّفين هؤلاء يبقون الأسياد الحقيقيّين.

(5)

من شأن ثورةٍ مُفاجِئةٍ أن تستبدل مستبدًّا جديدًا بمستبدٍّ قديم.

(6)

حقيقة الأمر أنّ العوائق الاجتماعيّة الّتي تُطيحُ الثّوراتُ بها ستنهض مُجدَّدًا، عاجلًا أو آجلًا، ذلك بأنّ الشّعوب لا يُمكن أن تؤمِّن معاشها من دون سلطتها الّتي تحدّ من غلوائها. بيد أنّ

العوائق الاجتماعيّة المذكورة لا تنهض بعامّة في المكان نفسه.

(7)

من السّهل، في بعض الأحيان، على أيّ شعبٍ أن يتحمّل شروره عوضًا عن أن يتحمّل العلاجات المستخدمة من أجل مُعالجته.

(8)

في بلدٍ منقسمٍ إلى طبقات تملك مصالح متعارضة، يُمكنُ الثّورةُ أن تقوم بشكلٍ سلميّ، لكن يندر أن تحتفظ بطابعها السِّلميّ هذا.

(9)

الحقّ أنّ أيَّ ثورةٍ، في بداياتها، لا تحكم سوى انهيارٍ في أثناء سقوطه.

(10)

الواقع أنّ العدوى الذّهنيّة هي العامل الأكثر أمانًا لانتشار أيّ ثورة.

(11)

لا يكمنُ الخطرُ الأكبرُ، الّذي يُهَدِّدُ تجمّعًا ثوريًّا، في ردّات الفعل التي تجري على يمينه، بل في المزايدات التي تجري على يساره.

(12)

إنّ ثورةً تقوم بها الجماهير لا تأخذ إلّا بتوجيه الدّوافع المتحرِّكة والفوضويّة لهذه الجماهير. تملك تحرّكات كهذه قوّة كبيرة، لكنّها لا تعرف الاستمراريّة وتتسبّب حتمًا في الفوضى.

(13)

نسيَ الثّوريّون الرّوس أن يتأمّلوا في كلمة نابليون هذه: تقودُ الفوضى دائمًا إلى السُّلطة المطلقة.

(14)

تتحرّكُ الثّوراتُ التي تندلِعُ في فضاءٍ من الأوهام والمزايدات الّتي تُوَلِّدُ فوضى اجتماعيّة. من هنا، تبرز في نهاية المطاف الإصلاحات.

(15)

من بين أسباب الثّورات يبرز سببُ خسارةِ الإيمان العام بقيمة التصوّرات القديمة الّتي تقود الحياة الاجتماعيّة. الواقع أنّ الفوضى الّتي تنجم عنها هي أيضًا موضعُ بحثٍ قلقٍ عن حقائق جديدة قادرة على توجيهِ شعبٍ من الشّعوب.

(16)

في خلال فترة انتصارِ ثورةٍ ما، أي عندما تنقطعُ العلاقاتُ الاجتماعيّةُ، ويتبع كلّ شخصٍ أهواءَه، يظهر بوضوح الدّور الأساسيّ الّذي لعبه الانضباط والتّماسك في المجتمعات.

(17)

غالبًا ما يعزو المؤرِّخون إلى الحوادث الثّوريّة، عندما يحكمون عليها، أسبابًا غريبة جدًّا عن أصولها الحقيقيّة. فعندما تخلّى الجنود عن خنادقهم، مع بداية الثّورة الروسيّة، لم يقوموا بهذا الأمر باسم مبادئ غير مفهومةٍ في رأيهم، بل قاموا بها رغبةً منهم في المشاركة في تقاسم الأراضي الّتي وعدهم بها الاشتراكيّون.

(18)

تكمن واحدةٌ من أكثر النّتائج المروِّعة للثّورة الروسيّة في تحويلِ جيشٍ مُكوَّنٍ من ملايين الرّجال، كانوا على أُهبة الاستعداد للقتال في اليوم الّذي سبق اندلاع الثّورة، إلى قطيع بلا روحٍ يفرُّ من أيّ هجومٍ يتعرَّض له. الحقّ أنّ التّحويل هذا تمّ عن طريق تدمير التّماسك الاجتماعيّ.

(19)

حقيقة الأمر أنّ أعداء الدّاخل يجعلون من أُمّتهم أُمّة ضعيفة في مواجهة أعداء الخارج.

(20)

تُدَمِّرُ بعضُ الثّورات، من مثل الثّورة الرّوسيّة، في بضعة أشهر العملَ التّجميعيّ الّذي حقّقته الجهود المبذولة على امتداد قرون.

(21)

يفتقر الثّوريّونَ إلى التبصُّر. الواقع أنّ الثّوريّين الرّوس راحوا، منذ الانتصارات الأولى الّتي حقّقوها، يتبعون ثلاثة أهداف من شأنها أن تُهلِك مستقبَل بلادهم: 1 ـ المطالبة بسلام مباشر، ومن ثمّ التخلّي عن الحلفاء الّذين دخلوا الحرب من أجلهم. 2 ـ الوعد بتقاسم الأراضي الأمر الّذي من شأنه أن يُوَلِّد صراعاتٍ مُستمرَّةً على امتداد مساحة الوطن. 3 ـ فَصْل كلّ الجنسيّات الأُخرى عن روسيا، الأمر الّذي من شأنه أن يتسبّب في تدمير الإمبراطوريّة الشّاسعة هذه.

(22)

بعد الانفصال عن أوكرانيا، الإقليم الكبير هذا الّذي يضمّ ثلاثين مليون رجل مثمرين للغاية، وأثرياء جدًّا، ومن ثمّ الانفصال عن فنلندا وليتوانيا، ستبقى روسيا من أكثر الإمبراطوريّات اتّساعًا، لكنّها ستُصبِح أيضًا الإمبراطوريّة الأكثر فقرًا، وستُلفي نفسها مَحُوطة بأقاليم معادية لها، وستنخرط في صراعٍ دائمٍ معها.

(23)

الواقع أنّ الثّورة الروسيّة استبدلت نظامًا قاسيًا آخرَ بنظامٍ صارمٍ. لقد أظهرت مُجدَّدًا أنّ الشّعوب تملك الحكومات الّتي تستحقّها.

(24)

لا يُوجد أيّ تشابه بين الثّورة الفرنسيّة والثّورة الروسيّة. ذلك بأنّ الثّورة الفرنسيّةَ قام بها بورجوازيّون مثقّفون، في حين أنّ الثّورة الرّوسيّة قام بها عمّالٌ وفلّاحون أُمّيّون لا يتخطّى مستواهم الذّهنيّ البتّة مستوى الشّعوب السكوتيّة(19) القديمة.

(22)

بحسب غالبيّة العمّال الرّوس فإنّ أيّ ثورةٍ تُلَخَّصُ في المفهوم الآتي: ما من أحدٍ يحكم أو يأمر، كلّ شخص يفعل ما يحلو له.

(23)

إذا لم تتغيّر أفكار ألمانيا، فإنّ أوروبا ستبقى مُهَدَّدةً بحروب مستمرّة. لكنّ الإمبراطوريّة الألمانيّة المصطنعة تُمثِّلُ دولةً إقطاعيّة مفروضة على دولة صناعيّة. وعليه، سيفهم الألمان أنفسهم يومًا ما تعارض هذين النّظامَين، وسوف تنجم من ذلك بالضّرورة ثورة من الثّورات الفكريّة، الّتي تُوَلِّدُ على الدّوام ثورات سيّاسيّة عميقة.

(24)

على الرّغم من أنّ الثّورات الكبرى يُمكن توقّعها بسهولة، فإنّها لا تُقدِّم أمثلةً صارخةً على سهولة توقّع تبعاتها المهمّة.

(25)

عندما تنتفي المسؤوليّةُ من كلّ مكان، تسود الفوضى كلّ مكان.

(19) السكوثيّون أو الإصقوث (من اليونانية: Σκυθία): هم شعب بدويّ متنقِّل ينحدر من أصول إيرانيّة، وهم من مملكة سيثيا (سكيثيا)، حلّوا محلّ السيريّين الذي كانوا قد جاؤوا من سهول روسيا، وقد نزح السكوثيّون من سهول أوراسيا إلى جنوبي روسيا في القرن 8 ق. م. انظر ويكيبيديا (المترجم).

الكتاب السّادس الشّعوب والحكومة الحديثة

الفصل الأوّل التقدّم الدّيمقراطيّ

(1)

بفضل الحرب، سينتهي الأمر من دون شكّ بالمساواة، الّتي لم تكن توجد إلّا في النّصوص القانونيّة، إلى أن تَلِج الأخلاق.

(2)

أسهمت الحرب الحاليّة في تحقيق الأفكار الدّيمقراطيّة أكثر ممّا أسهمت في ذلك الثّورات العنيفة. لقد تعلّم النّاس الّذين رزحوا تحت وطأة المخاطر نفسها أن يعترفوا بعضهم ببعض، وأن يُلاحظوا تساوي القدرات في مختلف المجالات.

(3)

من دون شكّ، ستُمثِّل الحربُ انتصارَ الدّيمقراطيّةِ الحاسمَ في العالَم. افتقرَ كثيرٌ من الملوك والدّبلوماسيّين إلى التبصُّر كيما تضع الشّعوبُ مُجدّدًا مصيرها خبطَ عشواء بين أيديهم. ربّما لن تتواتر الحروبُ كثيرًا، لكن على الأقلّ سيشنُّها أولئك الّذين بوسعهم أن يتحمّلوا الأعباء.

(4)

تُهدِّد الحربُ كلَّ الأنظمة الاستبداديّة، ومع ذلك اندلعت في الدّول الّتي شهدت صراعًا بين الحكومات الاستبداديّة. من المفيد في بعض الأحيان وجود مثل تلك الحكومات من أجل اتّخاذ القرارات السّريعة. مع ذلك، راكمت هذه الحكومات أخطاءً كثيرة استوجبت مراقبةَ إدارتها من قِبَل لِجانٍ مختصّة.

(5)

مع تطوّر الأزمنة الحديثة، ما من سُلطة مُطلَقَة ستكون قادرة على التّوفيق والتّنسيق بين المصالِح المتعدِّدة، والمتناقِضة في بعض الأحيان، لفئات اجتماعيّة مختلفة وتكييفها مع المصلحة العامّة.

(6)

نجم عن الحرب تقويضٌ تامّ لسلطة التصوّرات الاستبداديّة. وحدها الملكيّات التي يُمكن أن تصمد هي تلك التي ستتولّى إدارة شؤون البلد الّذي لا يحكم فيه الحاكم، بل يُمثِّل ببساطة رمزَ الوحدة الوطنيّة.

(7)

يبدو أنّ الانتقال من الاستبداد الفرديّ إلى الاستبداد الجماعيّ يجب أن يكون بالنّسبة إلى عدد كبير من الشّعوب تبعةً من تبعات الحرب الأوروبيّة.

(8)

إذا استمرّ قانون العرض والطّلب القديم في حُكْمِ العالَم، فمن المحتَمَل أن يرى العمّالُ وضعَهم يتعاظمُ كثيرًا بعد الحرب. ويعود السّببُ في ذلك إلى ندرة اليد العاملة إزاء الحاجات الجديدة الّتي تفرضها الصّناعة.

(9)

مع القليل من النّظام، ومع إقفال الملاهي اللّيليّة، ستتوصّل الطّبقة العاملةُ سريعًا إلى تشكيل برجوازيّة جديدة. الحقّ أنّ الشّريحة الوسطى من البرجوازيّة القديمة: قضاة، وموظّفين، وأساتذة، إلخ، تملك على العكس حظوظًا كثيرة في أن تُشَكِّلَ سريعًا طبقة بروليتاريا قد تَمدّ الجيش الاشتراكيّ بالعون بعد أن تخلّى عنه العمّالُ الّذين ارتضَوا مصيرَهم.

(10)

الواقع أنّ تقدُّمًا كبيرًا سيتحقّق عندما ينتخب النّاخبون من أجل تمثيلهم صناعيّين، ومُزارعين، وتُجّارًا يعرفون وقائع الحياة، عوضًا عن انتخاب محامين، أو رجالٍ يُلازمون كتبهم.

(11)

لا يكمن التطوّر الديمقراطيّ الحقيقيّ في إنزال النّخبة إلى مستوى الجماهير، بل برفع الجماهير إلى مستوى النّخبة.

الفصل الثّاني الدّولانيّة الألمانيّة والدّولانيّة اللاتينيّة

(1)

نَزَعَتِ الدّولانيّةُ وشكلها النّهائيّ، أي الجماعويّة(20)، قبل الحرب، إلى أن تُصبِح دين الشّعوب اللاتينيّة الوطنيّ. حقيقة الأمر أنّ الدّولة، بوصفها وريثة سُلطة العناية الإلهيّة، وسُلطة الملوك، مثّلت بالنّسبة إليهم كيانًا صوفيًّا كان على الدّوام موضِع نقد، ومع ذلك التمسه المواطنون لأنّه يؤمِّنُ لهم، على وجه الخصوص، ما يُرضي وجودهم الشّخصيّ.

(2)

يبدو أن لا سبيل إلى التّوفيق بين الليبراليّة الّتي تحترم كلّ الآراء، والدّولانيّة الّتي لا تحتَرِم إلّا رأيها. الواقع أنّ التقدُّم الّذي أحرزته الدّولانيّة أزالَ كلّ أثرٍ للحريّة من خلال تأسيس رقابة مستمرّة على الكتابات، وعلى الأفعال والأفكار.

(3)

إنّ تاريخ السّياسة في فرنسا منذ ثلاثين عامًا هو تاريخ غزوات الاشتراكيّة الدّولانيّة. بسبب نقص العدد، امتلكت الجرأة والإقدام، والعدد يخضع دائمًا للجرأة والإقدام. الواقع أنّ مزايداتها الدّيماغوجيّة وتهديداتها قادت البلاد إلى أقصى حافّة الهاوية. وهذه الهاوية كانت لتبتلعها على الأغلب من دون الحرب.

(4)

لا تُفضي النّتائجُ المختلفةُ، الّتي تحصَّلت عليها الدّولانيّةُ في فرنسا وفي ألمانيا، إلى إظهار أنّ آثار المؤسَّسات تتوقّف على ذهنيّة الشّعوب الّتي تتبنّاها فحسب، بل تُفضي كذلك إلى إظهار أنّ الكلمات عينها يُمكن أن تُشير إلى أشياء مختلفة للغاية، تبعًا لكلّ بلد على حدةٍ.

(5)

الدّولانيّةُ الألمانيّةُ مؤسّسَةٌ عسكريّةٌ قبل كلّ شيء. وإذا ما خرجت من مجالها قليلًا، فذلك لكي تترك للصناعيّين حريّة التصرّف. على العكس، تدّعي الدّولانيّةُ اللاتينيّةُ أنّها تحكم كلّ شيء، وتُدير كلّ شيء. فعندما لا يكون بوسعها أن تستوعِب المؤسَّسات الصّناعيّة، تتعاطى معها على أنّها عدوّة لها، وترهقها بأنظمة كيديّة تشلّ حركتها ونموّها.

(6)

الواقع أنّ الدّولانيّة الألمانيّة عاملٌ من عوامل التقدّم الاقتصاديّ المذهل في ألمانيا، في حين مَثَّلَتِ الدّولانيّةُ اللاتينيّةُ سببًا من الأسباب المؤكَّدة لانحطاطنا الاقتصاديّ.

(7)

عندما تدّعي دولةٌ ما أنّها تحكم وتُدير كلّ شيء، تُلفي نفسها سريعًا في حضرة مصالح جماعيّة غير قابلة للتّوفيق، مصالح تُعيق حركتها. وما يلبث ضعفها أن ينقلب إلى فوضى.

(8)

في الدّول الّتي تُسيطِر فيها الدّولانيّةُ اللاتينيّةُ، يبدو أنّ الإدارة العليا لشؤون البلاد أُنيطت بالوزراء. حقيقة الأمر أنّ الإدارةَ هذه يضطلع بها مُساعِدون غير مسؤولين. فالوزراء نادرًا ما يُنصتون إليهم. ويعود السّبب في ذلك إلى عدم كفاءتهم، وإلى الفترة القصيرة الّتي يمضونها في الحكم، وإلى عدم الانضباط العام، لذا تراهم لا يُمارسون السُّلطة إلّا بشكل موقّت.

(9)

كلّ فردٍ يشتغل بعملٍ جمعيّ، لكنّه لا يكترث لنجاحه، يوفِّرُ عائدًا منخفضًا. ينجم من المبدإ السّيكولوجيّ هذا، الّذي يجهله الاشتراكيّون جهلًا كبيرًا، تكبُّدُ المؤسَّسات، الّتي تُديرُها الدّولةُ، أموالًا طائلة، في مقابل تحقيقها عائدات ضعيفة للغاية.

(10)

تكمن واحدة من قوى الصّناعة الأمريكيّة في استغنائها عن تدخّلات الدّولة. أمّا ضعف صناعتنا فيعود إلى العوائق الدّولانيّة. إذا لم تتغيّر تصوّراتنا، فإنّ صناعتنا سترزح تحت وطأة القوانين والأنظمة.

(11)

عندما يعجز المواطنون عن أن يتفاهموا من أجل إدارة أعمالهم، ينبغي لآلة الدّولة الثّقيلة والـمُكلِفة أن تتدخَّل.

(12)

تُمثِّلُ إدارات الدّولة وإدارات الصّناعة الخاصّة هذا التّمييز الأساسيّ، ذلك بأنّ إدارات الدّولة تنشغل كثيرًا بالشّكل أكثر من المضمون، في حين تستخفّ إدارات الصّناعة الخاصّة بالشّكل، ولا تولي اهتمامًا إلّا للحقائق المفيدة.

(13)

إنّ احتقار القوانين الاقتصاديّة، وعدم التّناسق بين الضّرائب المفروضة والطلبات(21) في أثناء الحرب، وشلّ كلّ المبادرات الفرديّة من قِبَل مكاتب استبداديّة وغير مختصّة، كلّ ذلك يُمكن أن يجعلنا نستشفّ الفوضى الّتي قد يسقط فيها بلد خاضع تمامًا للنّظام الاشتراكيّ الدّولانيّ.

(14)

أكّدتِ الزّيادات المتتالية النّاجمة عن فرض الضّرائب في أثناء الحرب التّجارب القديمة. والحقّ أنّ كلّ الاتفاقيّات أقرّت بعدم إمكانيّة استبدال المبادرة الفرديّة، وحريّة العمل.

(15)

حقيقة الأمر أنّ الثّنيَ عن زراعةِ القمح من خلال فرض ضرائب تُجبِر المزارِع على بيع محصوله بسعر أقلّ من سعر التّكلفة، والضّغط باتّجاه إيقاف الزّراعة هذه، ومن ثمّ، السّعي إلى إحيائها عن طريق مَنْحِ إعانات خاضعة للإدارة المستبدّة، أمثلة صارخة على تأثير التدخّلات الدولانيّة الضارّة.

(16)

إذا شُلَّت المبادرات الصّناعيّة، والزّراعيّة، والتجاريّة بعد الحرب، بفعل تنظيمات كيديّة ناجمة عن التدخّلات الدّولانيّة، فإنّ انحطاطَ الشّعوب الخاضعة لهذا النّظام أمرٌ حتميّ. إذ لا يوجد تقدّم من دون المبادرات الفرديّة. والحقّ أنّه يستحيل القيام بهذه المبادرات إذا استمرّت الدّولة في قيادة جهاز الصّناعة والتّجارة المعقَّد.

(17)

استعادت الاشتراكيّة السّلميّة، الّتي تسبَّبت في خسائرنا الأولى عن طريق التّحضير غير الكافي الّذي يعود إلى انتشار عقائدها، تأثيرها الضّائع في بداية الحرب عبر دافعين اثنين: 1 ـ التطوّر العالميّ للاستبداد الدّولانيّ النّاجم عن ضرورات الحرب، وهو استبداد قريب جدًّا من الاستعباد الّذي حَلمَ به الاشتراكيّون، 2 ـ تأكيدها أنّه باستطاعتنا الحصول على السّلام عن طريق عقد مؤتمر اشتراكيّ دوليّ، ذلك بأنّ التّأكيد هذا ترك انطباعًا قويًّا في المخيِّلة الشّعبيّة.

(18)

الدّولانيّة اللاتينيّة شكلٌ ضعيف من أشكال الحكومة، أدّى قسطه للعُلى شأنه شأن النّظام الإقطاعيّ قديمًا، ولم يعد كذلك اليوم. وعليه، إذا طال أمده، فإنّ أقصى ما يبلغه تحقيق المساواة في العبوديّة، ومن ثمّ الانحطاط.

(19)

لا تقبلُ النّظريّةُ الألمانيّةُ عن الدّولةِ ذاتِ السّيادةِ المُطلقةِ قانونًا آخرَ سوى إرادتها الّتي تستتبع بالضّرورة تفوّقَ القوّة على الحقّ. من أجل تسويغ هذه الهيمنة، عمد الفلاسفةُ الألمان، من بعد أن قَدَّسوا الدّولةَ، إلى المُطابقةِ بين الحقّ والقوّة، وإلى اعتبار اللّطف والإنسانيّة أمارتَين على الضّعف.

(20)

التصوّرُ الألمانيُّ عن الدّولة، الّذي لا يعترف بأيّ معاهدة، تصوّرٌ آسيويٌّ أكثر منه رومانيّ، وتصوّر قديم أكثر منه تصوّر حديث. إنّه يُشكِّل تقهقرًا حقيقيًّا يقف العالمُ بأسره ضدّه.

(21)

عندما جعل هيغل من الدّولة سلطةً إلهيّة مطلقة، صاغ وخلفاءَه التصوّر العسكريّ لكلّ ملوك بروسيا، وذلك باستخدام مصطلحات فلسفيّة.

(22)

الحقّ أنّ الدّولانيّة والاشتراكيّة متقاربتان للغاية، ذلك بأنّ غالبيّة الاشتراكيّين في ألمانيا تُشكِّل حزبًا حكوميًّا.

(23)

القولُ بأنّ ألمانيا نجحت في غضون سنوات قليلة في التربُّع على عرش الصّناعة، حقيقةٌ لا تقبل الجدال. لكنّنا نخطئ كثيرًا عندما نعزو نجاحها إلى تأثيرات دولانيّة. تعود أسباب تقدمّها الّذي حقّقته في غضون خمسٍ وعشرين سنةً إلى التربية التقنية العليا، وإلى الانضباط الصّارِم، وإلى تضامن مختلف الصّناعيّين، وإلى تدخّل الأفراد المتميّزين القادرين على إدارة المؤسّسات الكبرى، وإلى امتلاكها مناجم كبيرة غنيّة بالفحم.

(24)

إذا كان تنظيمُ ألمانيا الدّولانيُّ مُفيدًا من أجل تنسيق جهود العقول الضّعيفة، فإنّه لا يُشجِّع الأبحاث المهمّة، إذ إنّه عمل يبقى حكرًا على النُّخَب. وعليه، عندما خسرت ألمانيا فردانيّتها خسرت معها علماءها الكبار، وكتّابَها الكبار، ومفكّريها الكبار.

(25)

يُمكنُ الدّولانيّةُ أن تكون موقّتًا سببًا من أسباب تقدّم الشّعوب الضّعيفة، لكنّها تنطوي حتمًا على الانحطاط. فعندما تُفكِّرُ الدّولةُ وحدها، وتعمل بدلًا من المواطنين، يُصبِح هؤلاء الأخيرون عاجزين عن التّفكير والعمل. حقيقة الأمر أنّ التفوّق الفرديّ يغرق في سذاجةٍ عالميّة، ومن ثمّ يتلاشى.

(26)

لا نُغالي إذا قلنا إنّ أنصارَ الدّولانيّة المتشدِّدينَ سيُصبحون خطيرين للغاية بعد الحرب. فهم برؤيتهم الاستبدادَ الدّولانيَّ يُفرَض على كلّ الشّعوب في أثناء الحرب، سيقتنعون بفائدته في خلال السِّلم. مع ذلك، من الجليِّ أنّ نظامًا تكيَّفَ مع وضعيّة غير طبيعيّة لا يأخذ بالحسبان إلّا هذه الوضعيّة.

(27)

إذا استمرّت الدّولانيّةُ العسكريّةُ، التي خلقتها الحرب، في مرحلة السِّلم، فإنّنا نتساءل وفق أيّ حدود يُمكنُ التّسامح مع استقلاليّة الفكر، ومع الحريّة الفرديّة؟ الواقع أنّ مستقبل الحضارة يتوقّف على الإجابة المعطاة لهذا السّؤال.

(28)

عاينتِ الفردانيّةُ الحديثةُ عدوّين كبيرين يقفانِ في وجهِها: الاشتراكيّة والجرمانيّة.

(29)

إذا انتهى الأمرُ بالإنسانيّة إلى تفضيل العبوديّة الجماعيّة على الحريّة، فإنّها ستدخل في عصر تقهقرٍ حاسِم.

(30)

الواقع أنّ وضعَ حدودٍ دقيقة فاصلة بين الفردانيّة والدّولانيّة سيكون مشكلةً من أصعب مشكلات المستقبل.

(20) الجماعويّة Collectivisme: نظام اجتماعيّ تكون وسائل الإنتاج والتّبادل بموجبه مُلكًا للجماعة. تُعرِّبها بعض المعجمات بالاشتراكيّة، لكنّها الشّكل الأكثر تطرّفًا للاشتراكيّة. (المترجم).

(21) العملية التي تطلب الإدارة من خلالها توفير نشاط أو توريد سلعة. وتشمل تحديدًا طلب المركبات في زمن الحرب. (المترجم).

الفصل الثّالث الدّيانة الاشتراكيّة

(1)

الحقّ أنّ دور المعتقدات ليس أقلَّ أهميّة اليوم ممّا كان عليه في الماضي. كثيرٌ من النّاس يعتقدون أنّهم تحرّروا من كلّ الأديان، بيد أنّ الرّوح الصّوفيّة تُسيطِر عليهم دائمًا. والإيمان الاشتراكيّ تجلٍّ من تجلّيات هذه الرّوح، شأنه في ذلك شأن البوذيّة والإسلام.

(2)

إنّ أتباع الطّوائف السّياسيّة المختلفة من مثل العدميّين، والماسونيّين، والاشتراكيّين، إلخ، هم كائنات دينيّة أضاعت معتقداتها القديمة، لكنّهم لا يستطيعون الاستغناء عن الإيمان من أجل توجيه أفكارهم.

(3)

عندما نادتِ المسيحيّةُ بالأخوّة العالميّة، وبانحطاط الإنسان، دمَّرت لدى الرّومان فكرةَ الوطن، وأَفْنَت الحضارةَ القديمة. وانتصار المثال الأعلى الاشتراكيّ اليوم من شأنه أن يُدَمِّر أيضًا عبادةَ الوطن، ومن شأنه أن يتسبَّب، من خلال صراع الطّبقات، في حروبٍ أهليّة تقود كلّ وطن إلى تدمير نفسه.

(4)

المعتقدات ذات الشّكل الدّينيّ، من مثل الاشتراكيّة، لا تتزعزع ذلك بأنّ الحجج والبراهين تبقى عديمة التّأثير في معتقدٍ صوفيّ. فالمؤمن يعتقد ولا يُفَكِّر البتّة.

(5)

حقيقة الأمر أنّ كلَّ المعتقداتِ، وبخاصّة المعتقدات السّياسيّة، تُفرَض بعامّة عن طريق التطلّعات الّتي تُولِّدها في نفوس أتباعها، وليس عن طريق الاستدلالات الّتي يُمكن أن تتذرّع بها.

(6)

امتلك السِّلميّون، باستنادهم إلى العقل وحده، دوافعَ صحيحةً مكّنتهم من تأكيدِ استحالةِ نشوب حرب. لكنّهم نَسَوا أنّ توجيهَ الشّعوبِ يتمّ عن طريق قوًى لا تُقيم اعتبارًا للعقل.

(7)

سوف يندهش المؤرِّخون كثيرًا عندما يكتشفون أنّ التّعليم الاشتراكيّ الألمانيّ الذي حمل طابعًا دينيًّا لم يعثْ فسادًا لدى العمّال الفرنسيّين، والسّياسيّين الّذين أتوا بعدهم إلّا بعد التخلّي عنه عمليًّا في ألمانيا.

(8)

على الرّغم من تباعد مبادئ الاشتراكيّة الجمعيّة ومبادئ المذهب العسكريّ، فإنّها تقود تمامًا إلى النّتيجة عينها: العبوديّة.

(9)

دَعَمَ كثيرٌ من المفكّرين فكرةَ أنّ انتصار الاشتراكيّة يُمكن أن يؤّديَ إلى عودةٍ تامّة إلى البربريّة. تُظهر تجربة روسيا، على الأقلّ، أنّ أيَّ شعبٍ خاضعٍ للإيمان الاشتراكيّ يقع سريعًا في الفوضى الّتي تجعله ضحيّة جيرانه الّذين لا يأبهون لإيمانٍ من شأنه أن يُوَلّد تبعاتٍ كهذه.

(10)

لا توجد إلّا أُبوّة وهميّة بين الاشتراكيّة اللاتينيّة واشتراكيّة الأمريكيّين والألمان.
فالأمريكيّون والألمان منشغلون على وجه الخصوص بإنتاج الثّروات، ذلك بأنّهم يعلمون أنّ العامل يستفيد منها دائمًا. على المقلب الآخر، ينشغل الاشتراكيّون الفرنسيّون ومُشرّعوهم بتوزيع الثّروات فحسب، فهم لم يكفّوا عن إبعاد رأس المال عن المؤسّسات الوطنيّة، من خلال مطاردته، وإجباره على التّوجّه نحو الاستثمارات الأجنبيّة. الحقّ أنّهم زادوا من حِدّة انحطاطنا الاقتصاديّ.

(11)

الواقع أنّ حرب الطّبقات، الّتي تبنّاها الاشتراكيّون الفرنسيّون، من بعد أن تخلّى عنها زملاؤهم الألمان، ستكون أشدّ فتكًا، وأكثر كلفةً من الحروب بين الشّعوب. الحقّ أنّ الحروب الأخيرة هذه لا تتسبّب إلّا في دمار موقّت، في حين أنّ حرب الطّبقات من شأنها أن تُفضي إلى دمار دائم.

(12)

لا يُقدِّم الإنسانُ أداءً مثاليًّا إلّا إذا كان مهتمًّا بشكل مباشر بنجاح العمل المؤسَّساتيّ. ينجم عن المبدإ السّيكولوجيِّ هذا أنّ العامل الّذي لا يتقاضى راتبًا يتناسب مع جهوده من أجل ازدهار مصنعه، وموظّف الدّولة الّذي يتقاضى راتبًا ثابتًا، سيُقدّمان على الدّوام أداءً متواضعًا.

(13)

لو أنّ الاشتراكيّةَ اقتصرت ببساطة على تحسين مصير الجماهير، لغدا العالَمُ بأسره اشتراكيًّا، لكنّ مِدماكَي العقيدة الأساسيّين هما: صراع الطّبقات، وإزالة رأس المال. والحقّ أنّ هذين المدماكَين يُؤدّيان إلى تفكيك المجتمعات، وتدميرها.

(14)

لم تتكشّف أهميّة دور رأس المال يومًا كما تكشّفت في خلال الحرب العالميّة. وعليه، لم يؤدِّ ثراء أيّ بلدٍ إلى النموّ الاقتصاديّ فحسب، بل أدّى كذلك إلى تنامي قوّته الدّفاعيّة، ومن ثمّ إلى تعزُّز استقلاله. لذا ينبغي لنا عدم عرقلة تطوّره، كما يفعل على الدّوام المشرِّعون الّذين تُسيطر عليهم التّأثيرات الاشتراكيّة.

(15)

الواقع أنّ الدّول التي سيمتلك فيها الاشتراكيّون سلطة تهجير رأس المال ـ وليس سلطة تدميره إذ إنّ هذا الأمر يتعذّر عليهم ـ ستُعاني انحطاطًا سريعًا.

(16)

حقيقة الأمر أنّ دور رأس المال الأساسيّ في الحرب الحاليّة، سيكون راجحًا أكثر في الحروب المستقبليّة. فثمن قذيفة المدفع من طراز 75 يبلغ 60 فرنكًا، في حين أنّ ثمن قذيفة المدفع من طراز 305 يبلغ 2500 فرنك. من أجل تدمير مدفعيّة عدوّ على بُعد أربعة كيلومترات، ينبغي إطلاق أكثر من ألف قذيفة. أمّا تدمير مدفعيّة عدوّ من طراز 155 تبلغ قيمتها عشرة آلاف فرنك، فيُكلِّف أكثر من ثلاثين ألف فرنك، وكلّما زادت قيمة العيارات زادت تكلفة تدميرها. والحال أنّ الكتّاب المتخصّصين في هذه الحسابات قدّروا أكلاف المدفعيّة منذ بداية الحرب بخمسةٍ وعشرين مليارًا.

(17)

إنّ بلدًا من دون رأس مال، بلدٌ من دون دفاع.

(18)

أشار كاتبٌ مُتبصِّرٌ بشكل مميّز، من خلال السّطور الآتية، إلى استمرار الأوهام الاشتراكيّة المذهِل. «الواقع أنّ المحنة الصّعبة الّتي فُرِضت على العالَم منذ ثلاث سنوات لم تُعَلِّم الاشتراكيّين شيئًا. فهم يدورون بِتَعَنُّتٍ حول الشِّعارات نفسها الّتي طبّقوها قديمًا من أجل خلق الأوهام الأكثر خطورة. كلّ ما رأوه في تلك الحرب هي إمكانيّة حجّة تدعم صراع الطّبقات الّذي يُشكِّل جوهر عقيدتهم».

(19)

هل يُمكنُ الأمم أن تزدهر من دون منافسات داخليّة وخارجيّة؟ الاشتراكيّون يحلّون هذه المسألة بسهولة، لكنّ التّجربة لم تحلّها بعد.

(20)

الحقّ أنّ الاشتراكيّين، الّذين يعيشون في النظريّات المجرّدة المستقلّة عن القوانين الاقتصاديّة، بإمكانهم أن يعدوا الجماهير بالجنّات الّتي تتوق إليها. على المقلب الآخر، نجد أنّ خصومَ الاشتراكيّة الـمُقَيَّدين بضرورات اقتصاديّة مُتَعَنِّتة لن يكون بمقدورهم أن يُطلقوا الوعود نفسها، ومن ثمّ، أن يحظوا بالمكانة نفسها.

(21)

يكمن أكثر أخطاء الاشتراكيّة خطورةً في عدم فهمها أنّ صراع الطّبقات يُلحِق الضّرر بالإنتاج الّذي يستفيد منه العاملُ دائمًا. حقيقة الأمر أنّ الاشتراكيّين الألمان الّذين يُعَلِّمون هذا الصّراع في كتبهم، تخلّوا عنه عمليًّا منذ وقت طويل.

(22)

ينبغي إهمالُ كلّ الدّوافع الّتي تقود النّاسَ إلى تصوّر مجتمعٍ تُسْتَغلُّ فيه كلّ وسائل الإنتاج بشكل مشترك. من شأن هذا التصوّر أن يُفضي بالشّعوب إلى عبوديّة ضيّقة لا يُمكن أن تنبت إلّا في العقول الخاضعة للانضباط الصّارم في الثّكنات الألمانيّة.

(23)

الذّكاء، ورأس المال، والعمل هي العوامل الأساسيّة لتقدّم الصّناعة الحديثة. في الوقت الّذي انشغلت فيه الأمم الّتي تُسيطر عليها الأوهام الاشتراكيّة، انتهى الأمر بالعناصر الثّلاثة، لدى الأمم الأخرى، بتشكيل تجمّع كان المولِّد الأساسيّ لتقدّمها.

(24)

من المستحيل الحكم بما إذا كانت الرّأسماليّة ستختفي في المستقبل. في مطلق الأحوال، لا نستطيع أن ننفي اليوم أنّها باتت عنصرًا أساسيًّا من أجل تقدّمنا الجديد، لا سيّما بعد أن حوَّلتِ العالَم في أقلّ من قرنٍ واحد.

(25)

من أجل فهم استمرار بعض الأوهام الاشتراكيّة، ينبغي لنا أن نتذكّر أنّ العبثيّة أيّ معتقد لا تُلحِقُ الضّرر أبدًا بانتشاره.

(26)

نتبيّن قوّة الدّيانة الاشتراكيّة عندما نُلاحظ أنّ أتباعها، على الرّغم من الكوارث غير قابلة للإصلاح الّتي كادت تتسبّب فيها، لم يخسروا شيئًا من جرّاء إيمانهم، بل إنّهم يُطالبون أيضًا بقيادة المجتمعات تبعًا لأوهامهم.

(27)

أحرزت الدّيانة الاشتراكيّة تقدّمًا كهذا في بعض العقول الّتي يبدو لها الحديث عن الحريّة الفرديّة، وعن المبادرة، وعن تحديد حقوق الدّولة بمثابةِ لغةِ عصرٍ ولّى.

(28)

من وجهة نظر العقائد الاشتراكيّة، تُقَدِّم الحربُ ظاهرتين تبدوان متناقضتين. بادئ ذي بدء، بيَّنت انهيار النّظريّات الدّوليّة مُثبِتةً أنّ العلاقات الّتي كوّنها العِرق أقوى بكثير من العلاقات النّاجمة عن مصالح المهنة. من جهة أخرى، حقّق تطوّر الدّولانيّة، الّذي وصل إلى حدّ العبوديّة، أكثر أحلام الاشتراكيّين توهّمًا، وإن بصورةٍ وقتيّة.

(29)

إذا أمكن الاعتقادات الصوفيّة أن تتخلَّص من اعتداءات العقل والتّجربة، فإنّ الاشتراكيّين سيرون في الحرب ما يؤكِّد نظريّاتهم فحسب.

(30)

يُثبِت تطوّر الدّيانة الاشتراكيّة قانونًا تاريخيًّا مفاده أنّه إذا أمكن الشّعوب أن تُغيِّر أحيانًا أسماء آلهتها، فإنّه ليس بمقدورها أن تستغني عن الأوهام الكبيرةِ هذه من أجل توجيه حياتها.

الفصل الرّابع الخصال السّيكولوجيّة الضّروريّة للحكومات

(1)

يُمثِّلُ رئيس الدّولة اليوم خلاصة الإرادات الّتي يُمكِن أن يُوجِّهها، لكنّ الإرادات هذه تُسيطر عليه إذا لم يعرف كيف يُوجّهها.

(2)

كما أنّ الفيزيائيّ الّذي يعرف قوى الطّبيعة يُصبِح سيّد الظّواهر. كذلك بمقدور رجل الدّولة القادر على التّلاعب بالقوى السّيكولوجيّة أن يتحكّم بمشاعر النّاس وإراداتهم كما يحلو له.

(3)

يعرف رجلُ الدّولةِ كيف يستخدم الأوهام الّتي لا يستطيع كثير من النّاس الاستغناء عنها. أمّا رجل الدّولة الّذي يفتقر إلى الخبرة فيضطهدهم ويقع ضحيّتهم.

(4)

طالما كان الجهلُ بسيكولوجيا الشّعوب مصدرًا من مصادر الأخطاء السيّاسيّة الكارثيّة.

(5)

تنبثق الطّبقات الحاكمة عن المنافسات التي تكشف الذّاكرة، لكنّها لا تنبثق عن خصال الحكم والشّخصيّة الّتي تُشكِّل قيمة الإنسان. والحال أنّ المجتمعات تجد نفسها مَقُودة من قِبل رؤساء غالبًا ما يكونون أغبياء.

(6)

العيش حصرًا في الكتب يَمنع فهم الحقائق. لذلك تُعَدُّ حكومات الـمُنَظِّرين خطيرة جدًّا لأيّ بلد.

(7)

كلّما كانت المشكلة السيّاسيّة مُعَقَّدةً، وجدنا عددًا أكبر من النّاس يخالون أنفسهم قادرين على حلِّها.

(8)

الواقع أنّ التّردّد وغياب التبصُّر يُشكِّلان عيوبَ رجال السّياسة الأكثر شيوعًا. فهم بعدم قدرتهم على قيادة الحوادث، يتركونها تُسيطِر عليهم، ناهيك بكونهم يُكابدون كلّ الصُّدَف.

(9)

من بين رجال السّياسة الّذين يتحكّمون بمصائر الشّعوب، نُصادِف عددًا كبيرًا من الرّجالِ السُّذجِ، الـمُقتنعين بأنّ القوانين الطّبيعيّة تتغيّر مع إصدار المراسيم. نادرة هي العقول المتبصِّرة الّتي تعي معنى المسؤوليّة، وتكتفي بتوجيه مسار الأشياء من دون أن تدّعي قدرتها على تغيير مجراها.

(10)

تتخيّل الجماهيرُ، عن طيبِ خاطرٍ، أنّ حكوماتها تنتمي إلى إنسانيّةٍ متفوِّقةٍ معصومةٍ. من هنا يتبدّى غضبهم مذ يكشف أيُّ عجزٍ عن الإنسان الّذي يقبع وراء المثل الأعلى.

(11)

تتوقّف قيمةُ أيِّ وزير كثيرًا على محيطه، لكنّ فنَّ اختيار النّاس أصعبُ من فنّ حُكمهم.

(12)

ذاك الرّجل الّذي أصبح وزيرًا كان يجدر به أن يبقى حوذيًّا بسيطًا، وذاك الرّجل الّذي ظلّ حوذيًّا كان يستحقّ أن يُصبِح وزيرًا، يقول نابليون. من دون شكّ، لكن كيف نُميِّز ونكتشف القدرات الحقيقيّة؟

(13)

إنّ أسوأَ الطّغاةِ أقلُّ خطورةً من الحُكّامِ الـمُتَرَدِّدين. فالتّردُّد يُشكِّل على الدّوام مُوَلِّدَ الكوارِث.

(14)

إذا بدا كثيرٌ من رجال الدّولة مُتردِّدين في أفعالهم، فذلك يعود إلى عدم امتلاكهم فكرة واضحة عمّا ينبغي لهم أن يقوموا به، وعمّا يستطيعون القيام به.

(15)

الرّجل الّذي لا يستطيع التحكّم بأعصابه، غير مؤهّل لتقلُّد أبسط المناصب السياسيّة. إذا كانت حرب العام 1870 حتميّة، فذلك لأنّ المفاوضات قيدَت من قِبَل وزير لا يملك هدوءًا كافيًا لكي يتحقّق، قبل أن يتصرّف، من صحّة الوقائع الواردة في البرقيّة المُزَوَّرة الّتي أدّت إلى اندلاع الحرب. والحال أنّ المكْرَ السّيكولوجيّ لرجلٍ دبلوماسيٍّ عدوٍّ لنا نجح في استخدام تهيّجنا الإثنيّ من أجل إقحامنا في سلسلة من الكوارث.

(16)

ينبغي لرؤساء الدّول أن يُميِّزوا الدّوافع الّتي يُمكن أن تؤثِّر في الذّهنيّات المختلفة. حقيقة الأمر أنّ الدّبلوماسيّين الألمان، غير القادرين على مثل هذا التّمييز، لم يفهموا أنّ سياسة التّرويع الّتي كانت فعّالة جدًّا مع البلقانيّين، لن يكون لها أيّ تأثير في الشّعوب الأخرى.

(17)

تكمن واحدة من أخطر عادات رجال السّياسة المتواضعين في إطلاقهم وعودًا يعرفون جيّدًا أنّهم لن يستطيعوا الوفاء بها.

(18)

في السّياسة، المؤسّسات أقلّ أهميّة من الأخلاق.

(19)

تُشكِّل الجمعيّات البرلمانيّة نظامًا سيّاسيًّا كافيًا، إذا استطعنا أن نُجَنِّبَها تأثير الأشباح الكبرى الّتي تضطهدها: الخوف، والغيرة، والكراهية. شكّلت هذه الأشباح منذ خمسةٍ وعشرين عامًا مُلهمات الاضطهادات، والقوانين الّتي أفسدت تنظيم الصّناعة، والأموال، والجيش.

(20)

التّعصُّبُ وخشيةُ النّاخبين لم يتركا للمشرّعين حريّة كبرى في إصدار الأحكام.

(21)

في الولايات المتّحدة، لا تضطلع الدّولةُ بمسؤوليّات كثيرة، لذا تبقى التّأثيرات السّياسيّة من دون فعاليّة كبيرة. الحقّ أنّ دور رجل السّياسة لا يُصبِحُ كارثيًّا إلّا في البلدان الّتي تشغل الدّولةُ فيها كلَّ الوظائف.

(22)

من الخطر دائمًا أن تُقاد الشّعوب من قِبَل رجالٍ يكترثون لآثار تدابيرهم في حزبهم أكثر ممّا يكترثون لقيمة هذه التّدابير ومصلحتها العامّة.

(23)

يعرِفُ رجلُ الدّولة المتفوِّق كيف يُعارِض الدّليلَ الّذي يتصوّر خطأَه، والّذي تُطالب الأحزابُ السّيّاسيّةُ بفرضه عليه.

(24)

تتجلّى عدمُ الخبرةِ السياسيّة، بصفة عامّة، من خلال الحاجة إلى مراكمة التّدابير التّقييديّة. وعليه، إذا اتُّخِذَت هذه التّدابيرُ عشوائيًّا، فإنّها تتعارض بذلك مع كلّ القوانين الاقتصاديّة، وينبغي والحال هذه إلغاؤها سريعًا.

(25)

الحقيقة أنّ الحكومات الّتي لم تُحسِن خلق الرّأي العام، لن تعرفه غالبًا إلّا في اللّحظة الّتي يُطيح بها فيها.

(26)

عبثًا يسعى رجالُ الدّولة، الّذين يفتقرون إلى الشّخصيّة، إلى تدعيم ضعفهم الفرديّ من خلال ربطه بالضّعف الجماعيّ.

(27)

لا يُمكننا أن ننتظر شيئًا من رجال السّياسة الّذين يرون في العالَم مرآةً تعكِس رغباتهم، وأحلامهم، ومخاوفهم وحسب.

(28)

إذا كان العالِم يبحث عن الحقيقة من دون أن يخشى تبعاتها، فإنّ السيّاسيَّ لا يثق بها، بل يعدّها عدوًّا له. الواقع أنّه يفرض رقابةً على تعبيره، أملًا منه في تدميرها، مع العلم أنّه أملٌ عبثيٌّ بامتياز.

(29)

يكمن خطأ من أكثر الأخطاء السّيّاسيّة خطورة في عزو إدارةِ الشّؤون العامّة إلى خطباء بارعين. في هذا السّياق، لاحظ نابليون من قبلُ أنّ الخطباءَ البارعين القادرين على حكم مجتمع، عاجزون عن قيادة أكثر الأعمال تواضعًا.

(30)

يندر أن يكونَ خطيبٌ بارعٌ مُفكِّرًا كبيرًا. ذلك بأنّ فنّ الخطابة يكمن تحديدًا في التّلاعب بمهارةٍ في الشّعارات الوهميّة القادرة على التّأثير في الجماهير.

(31)

الواقع أنّ رجل السّياسة الّذي يبذل جهده في الأقوال، نادرًا ما يبذله في الأفعال.

(32)

بالنّسبة إلى الدّبلوماسيّين، كما بالنّسبة إلى النّساء، غالبًا ما يكون الصّمتُ أكثرَ الشّروحات وضوحًا.

(33)

يبدو رجل الدّولة الحقيقيّ في بعض الأحيان مُتصلِّبًا في خطاباته، لكنّه لا يبدو ذلك البتّة في أفعاله. الحقّ أنّ الضّرورات الّتي تحكم حياة الشّعوب الحديثة لا تتوافق مع التصلُّب.

(34)

أن تحكم يعني أن تقطع وعدًا، وأن تقطع وعدًا يعني ألّا تستسلم.

(35)

لكي يحكم أيّ حاكمٍ بحكمة، ينبغي له ألّا ينسى أنّ تأثيرَ الماضي يحدُّ من العمل الممكِن للإنسان في الحاضر. والحال أنّ جمهور الأحياء يبقى مؤطّرًا بجمهور الموتى.

(36)

الواقع أنّ فكرةَ قيامِ النّاسِ بأشياء هي أنفع للحكّام من معرفتهم القيمة الحقيقيّة لهذه الأشياء.

(37)

يُمثِّلُ توليدُ المشاعر والمعتقدات في نفوس الشّعوبِ، وتنميتها أو إزالتها، عنصرًا من عناصر فنّ الحكم الأساسيّة.

(38)

الواقع أنّ معرفة التّلاعب بمشاعر أيّ شعبٍ، تعني التحكّم في إرادته. ومعرفة كيفيّة جعل هذه المشاعر مستمرّة، تعني تجديدَ نفْسِه.

الفصل الخامس عيوب الحكومات الّتي كشفت عنها الحرب

(1)

الواقع أنّ نقصان التبصُّر كان السِّمة العامة الّتي لازمت رجال الدّولة قبلَ وفي خلال الحرب. ذلك بأنّ الحكّام القادرين على توقُّع الحوادث قبل بضعة أشهر فقط حكّامٌ استثنائيّون.

(2)

يتمُّ التّكفيرُ دائمًا عن التّردّدِ وعن عدمِ القدرةِ على التوقُّع. فالألمان ارتعبوا من التّفكير في الدّمار الّذي كان يُمكن أن يلحق بأسطولهم لو لم يتنازل لهم وزير إنجليزيّ، من جرّاء قِصَرِ نظره، عن جزيرة Héligoland. والحلفاء لا يُمكنهم أن يتذكّروا من دون مرارةٍ أنّ مسارَ الحرب كان ليتغيّر تمامًا في بداية الحرب، لو امتلكَ وزيرٌ بعينه روح القرار وروح التوقّع الضّروريَّين من أجل إصدار الأوامر لبعض السّفن الحربيّة بمطاردة السّفن الألمانيّة عندما تتّجه إلى القسطنطينيّة.

(3)

فهِمَ إمبراطورٌ مُتبصِّرٌ أنّ ألمانيا كانت من أكثر دول العالَم اكتراثًا بإحلال السّلام، ومن ثمّ تبيَّنَ عمق نصيحة بسمارك ومفادها عدم العبث مع روسيا.

(4)

لا يُمكِنُ إصلاح تبعات عدم التوقُّع بتّةً. لقد خَسِر الحلفاء من دون طائل أكثر من مئة ألف رجل في معركة غاليبولي Gallipoli (22)، في محاولة عبثيّة لإصلاح أخطاء التّردّد وعدم التوقّع الّتي ارتُكِبَت سابقًا.

(5)

تُلَخِّصُ كلمةٌ بسيطةٌ، وأعني عدم التوقُّع، أسباب غالبيّة الإخفاقات الّتي وقعَ الحلفاءُ ضحيَّتها في بداية الحرب.

(6)

يستمرُّ أسيادُ الشّعوب في عيشِ أفكارٍ أصبحت من دون قيمة. تكمن واحدةٌ من الحقائق، الّتي برهنتِ الوقائِعُ عليها برهانًا قاطعًا، في أنّ أيَّ بلدٍ لا يربح شيئًا من جرّاء ضمّ شعوبٍ غريبةٍ إليه خلافًا لإرادتهم. اختبرتِ النّمسا هذا الأمرَ قديمًا، وكذلك ألمانيا في علاقتها مع الألزاس، إذ مثّلت هذه الأخيرة سببَ الاضطرابات والنّفقات على امتداد خمسين عامًا.

(7)

«فات الأوان»، تُفسِّر هذه العبارةُ، كما قال وزير إنجليزيّ، عددًا كبيرًا من النّكسات.

(8)

طالما كانت إرادةُ الشّعوبِ ضعيفةً، على امتداد التّاريخ، بيد أنّها أصبحت اليوم عنصرًا أساسيًّا من عناصر السّياسة الحديثة.

(9)

إذا كانت القوى العظمى قد ضُلِّلَت من قِبَلِ عملائها الّذين قاموا بهذا التّضليل لكي ينالوا حظوة رؤسائهم، فذلك لأنّ هؤلاء العملاء يكتفون بنقل آرائهم إليها. الحقيقة أنّ أوهامنا المتعلّقة بالبلغاريّين واليونانيّين، في بداية الحرب، لم تكن لها أسباب أخرى على الإطلاق.

(10)

يُمكنُ الأخطاء الـمُرتكبة في التّلاعب بالقوى السّيكولوجيّة أن تقضيَ على تفوّق الأسلحة. الحقّ أنّ ألمانيا اختبرت هذا الأمر، ذلك بأنّ قصور دبلوماسيّيها السّيكولوجيّ أوجد لها أعداءً جددًا.

(11)

الحكومات الضّعيفة شأنها شأن الأفراد الّذين لا شخصيّة لهم، لا يُخيفون أعداءهم كثيرًا، ولكنّهم خطيرون جدًّا لأصدقائهم. وضّحت روسيا في خلال الحرب هذا المثال.

(12)

لا يعدو أيُّ ديكتاتورٍ كونه وهمًا. حقيقة الأمر أنّ سلطته تتبدَّدُ بين عددٍ كبير من الدّيكتاتوريّين الفرعيّين المجهولين وغير المسؤولين، بحيث سرعان ما يغدو الاستبداد والفساد ظاهرتين لا تُطاقان.

(13)

كلّ سلطة من دون مسؤوليّة تتحوّل سريعًا إلى استبداد.

(14)

يُمكننا أن نُكَوِّن فكرةً عن قوّة تجّار الخمر المذهلة، وعن الخشية من أن يُثيروا الخوف في مُشَرِّعينا عندما يُلاحظون أنّهم أطاحوا أشهر وزير من وزراء حربنا لأنّه سعى إلى اعتراضِ تجارتهم، مردّه في ذلك تأثيرات الخمر السّلبيّة في صحّة الجنديّ.

(15)

الواقع أنّ دوافع الاعتراض على برلماننا كثيرة، لكن ينبغي الاعتراف أنّه من دون اللِّجان الرّئيسة المنبثقة عنه، ما كُنّا لنحصل على الذّخائر، ولا على المدافع الضّروريّة من أجل الدّفاع. الحقّ أنّ حكومة مُطلقة، لكنّها أسيرةُ أوهامٍ بيروقراطيّة، ما كانت لتنجح في الحصول على الذّخائر والمدافع.

(16)

الحقّ أنّ المزايدة، العامّة جدًّا في السّياسة، كانت على الدّوام طريقة خطيرة. يُمكنُ أن تكون مفيدةً موقّتًا للأحزاب، لكنّها غير مفيدة البتّة للحكومات.

(17)

إنّ تفضيل فائدة يومٍ واحدٍ على حقائق مُستمرّة، والحكم وفاقًا لآراء اللّحظة، يعنيان خلق أوضاع مستقبليّة لا علاج لها.

(22) حملة غاليبولي أو حملة الدردنيل أو معركة جناق قلعة: هي حملة عسكرية شنتها قوات بريطانية وفرنسية مشتركة خلال الحرب العالمية الأولى بهدف احتلال العاصمة العثمانيّة إسطنبول. دارت معارك الحملة في شبه الجزيرة غاليبولي على مضيق الدردنيل عام 1915، باءت جهود الحملة بالفشل وقتل ما قُدّر عدده بحوالي 55 ألف جندي من قوات التحالف (بريطانيا، أستراليا، نيوزيلندا، فرنسا) وحوالي 90 ألف جندي عثماني ومئات الآلاف من الجرحى من الطرفين. تُعرف هذه المعركة في تركيا باسم چنق قلعة ساواشى (بالتركية: Çanakkale Savaşı) كونها وقعت في منطقة چنق قلعة. وفي بريطانيا، تسمى بمعركة مضيق الدردنيل. انظر ويكيبيديا (المترجم).

الفصل السّادس دروس سياسيّة مُستفادة من الحرب

(1)

لم يكن فنّ الحكم يومًا صعبًا شأن ما سيكون بعد الحرب. الواقع أنّ واحدةً من المشكلات الكبيرة قد تكمن في القطيعة مع عادات التّدخّل العالميّ الّتي استوجبها النّزاع.

(2)

إنّ فنّ التّلاعب بيقين بجملة المشاعر الّتي تُحرِّك النّاس لا تُعَلَّم في الكتب ولا في المدارس. لقد ظلّ هذا الفنُّ تجريبيًّا، ويُكتسب عن طريق التّجربة فقط. الواقع أنّ هذا الاكتساب ليس أمرًا سهلًا، لا سيّما إذا أطلقنا حكمنا هذا انطلاقًا من كلّ الأخطاء السّيكولوجيّة الّتي ارتُكِبَت في أثناء الحرب.

(3)

إنّ المولّدات الكبرى لسلوك الشّعوب هي المعتقدات والمصالِح. إلى ذلك، لا يُمكن الحدّ من هذه المعتقدات عن طريق العقل، ولا عن طريق القوّة. والحال أنّه ينبغي أن يقتصر دور الحكّام على توفيق المصالِح. الحقّ أنّ قرونًا عديدة من الاضطهادات ومن الحروب الدّمويّة كانت ضروريّة من أجل تأسيس صلابة هذا المبدإ السّيكولوجيّ.

(4)

الحقيقة أنّ الرّجال الأكثر قدرةً على توجيه الحوادث غالبًا ما تُحرِّكهم هذه الأخيرة من بعد أن تقودهم إلى حدٍّ مُعيّن لا يُمكنهم توقّعه مُسبقًا.

(5)

تختلف الأهدافُ، الّتي تُحَقَّق في السّياسة، في بعض الأحيان كثيرًا عن الأهداف المتوخّاة. لم تكن لدى ألمانيا حتمًا أيّ فكرة عن الخدمة الّتي قد تُسديها لألمانيا من خلال إرغامها على الدّخول في الحرب. الحقّ أنّها تُجنِّبُها في الوقت الحاليّ صراعًا أهليًّا مع إيرلندا، ووحَّدت في كتلة واحدة العناصر الضّعيفة الّتي تنطوي عليها إمبراطوريّتها الشّاسعة. في ما يتعلّق بالمستقبل، سوف تُنَمّي ألمانيا قدرة إنجلترا الصّناعيّة والاقتصاديّة بشكل ملحوظ، من خلال إفهامها مخاطر تغلغل النّزعة الجرمانيّة.

(6)

بفضل تقدّم صناعتها، استطاعت ألمانيا أن تفرض بسرعة، في زمن السِّلم، الهيمنة الّتي كانت تحلم بها. الواقع أنّها ستُزعزِعُ العالَمَ من أجل نتيجة تتعارض حتمًا مع النّتيجة الّتي رامَتْها.

(7)

يُبيِّنُ لابلاس Laplace، في كتابه حول الاحتمالات، «الفوائد الّتي وفَّرَها حسنُ النِّيَّةِ للحكومات الّتي جعلت من حسن النيّة أساسَ سلوكها. على العكس انظروا في أيِّ هاويةِ بؤسٍ قُذِفَتِ الشّعوب من جرّاء طموح رؤسائها وخياناتهم. في كلِّ مرّةٍ تتطلّعُ قوّة عُظمى، سَكْرَى من حبّ الغزوات، إلى السّيطرة العالميّة، يُنتِجُ الشّعور بالاستقلال، بين الأمم الـمُهَدَّدةِ، تحالفًا غالبًا ما تقعُ القوّةُ العظمى هذه ضحيَّتَه». تنطوي هذه الصّفحة، الّتي كُتِبَت منذ أكثر من قرنٍ، على حقائق ستبقى أزليّة، على الرّغم من أنّها لا تحظى بفرصٍ كثيرة في تلقّي تطبيقٍ عمليّ.

(8)

طالما كانتِ النّضالاتُ الّتي خيضت من أجل مبادئ طويلةً. نذكرُ منها، في العصور القديمة، الحروب اليونانيّة الفارسيّة(23)، وفي الأزمنة الحديثة الحروب الدّينيّة، وحرب الثّلاثين العام(24)، وحروب الثّورة الفرنسيّة(25). وبعد، إذا كانت الحرب الأهليّة الأمريكيّة(26) قد دامت خمس سنوات فحسب، فذلك لأنّ الخراب الماليّ الّذي أصاب أحد الأطراف المعنيّة جعل استمراريّة النّزاع أمرًا مُحالًا.

(9)

من الخطورة دائمًا أن تحظى أيّ أمّة بماضٍ مثقلٍ جدًّا بالظّلم.

(10)

مهما تعاظمت قوّة أيّ شعب، ومهما عظمت غزواته، ومهما تفوّقت أسلحته، فلا يُمكن قوّتُه أن تستمرّ ما دام يُهدِّد الشّعوبَ الأخرى بشكل مُستمرّ. الحقّ أنّ أكثر من غازٍ اختبر هذا الأمر قديمًا. وها هم الألمان يُكرّرون هذا الخطأ بدورهم.

(11)

طرح فرديريك الثّاني سابقًا القواعدَ الّتي طبّقها لاحقًا من خلفوه، وذلك عندما قال إنّ الحربَ قضيّة يُمكنُ أدنى ارتيابٍ فيها أن يتسبّب في خسارة كلّ رشيء. برأيه، لا يُمكننا أن نشنَّ حربًا من دون أن نمتلك حقّ النّهب، والحرق، وإراقة الدّماء.

(12)

أن نحكم خلافًا للرّأي العام أمرٌ مستحيل، لكن بوسعنا أن نخلقه. كَمن عنصرٌ من عناصر قوّة حكومة ألمانيا في معرفتها، منذ زمن طويل، كيف تُوَجِّه رأي شعبها باتّجاه ضرورة شنّ حرب غزو. وكان لها ما أرادت بمساعدة الجامعات، والصُّحف، والكثير من الجمعيّات.

(13)

الواقع أنّ التّدابير الاستثنائيّة الّتي تُفرَض على مجموعة سيّاسيّة، أو دينيّة، أو إثنيّة، لا تفعل شيئًا سوى أنّها تدعمها. إذا تعرّضت هذه المجموعة للاضطهاد، فإنّها تُبدي تماسكًا أكبر، في حين أنّها تتفكّك حالما يُتَوَقَّف عن التّعامل معها بعدم مساواة. المبدأ السّيكولوجيّ هذا حفظ لليهود فرديّتهم على امتداد العصور. على المقلب الآخر، رأت إمبراطوريّة النّمسا أقاليمها تتفكّك لأنّها تجاهلت هذا المبدأ.

(14)

قد يكفي يومٌ واحدٌ لاجتياح شعبٍ ما. بيد أنّ إدماجه واستيعابه يحتاج إلى قرون في بعض الأحيان، وغالبًا ما يعجز الزّمن نفسه عن تحقيق هذه الغاية. فإنجلترا لم تستطع البتّة أن تضمّ إيرلندا، وطالما عانت النّمسا عداءَ الشّعوب الخاضعة لسيطرتها.

(15)

لا يكفي العنف من أجل إدماج نفوس الأعراق. على الرّغم من أنّ التّاريخ أظهرَ بقوّة هذا القانون السّيكولوجيّ، فإنّ أسياد الشّعوب لم يفهموه بعد.

(16)

ألقى تاريخُ السّنوات العشرين الّتي تلت حرب 1870 الضّوءَ على فائدة العقول المتفوِّقة في حُكْمِ الشّعوب. والحال أنّ الحاكم الّذي كان على رأس ألمانيا عَرَفَ كيف يعزل فرنسا من خلال تحالفه مع إيطاليا، ومع رومانيا، ومع النّمسا، والحصول من ثمّ على حِياد روسيا وإنجلترا المُجْدي. اختفت هذه الوضعيّة تدريجيًّا مُذ حُكِمَت ألمانيا من قِبَل رؤساء مُتعجرفين، ومُستعدّين دائمًا لتهديد أوروبا بقوّة ألمانيا.

(17)

في نظر الشّعوب ذات الأعراق، أو اللّغات، أو الأديان أو المصالِح المختلفة، الشّعوب الّتي اجتمعت من خلال مصادفات الغزوات، لا يوجد إلّا شكلانِ ممكنان للحكومة: الأوتوقراطيّة المحض، أو فدراليّة أقاليم مستقلّة. الواقع أنّ نموذج الحكومة الأخير هذا يُفرض الآن في كلّ مكان. اختبرت إنجلترا هذا الأمر مع ترانسفال ومع إيرلندا، واختبرته النّمسا مع هنغاريا، وسوف تختبره سريعًا، من دون شكّ، مع أقاليمها الأخرى. أمّا روسيا المُكوَّنة من شعوب مُختلفة، فسوف تتوصّل على الأرجح إلى الانفصالات عينها بعد سلسلة من الاضطرابات.

(18)

لا يُمكنُ أيُّ شعبٍ أن يتطلّع إلى حكومة أفضل منه. تتوافق الحكومات المرتابة مع النّفوس المرتابة.

(19)

إذا كانت الحكومات الديمقراطيّة حتّى الآن حكومات محامين، فذلك لأنّ الصّراعات البرلمانيّة تُعطي عادةَ الكلامِ دورًا كبيرًا. في الحضارات ذات الشّكل الصّناعيّ، تُصبِح الكفاءة التقنية أكثر ضرورة بكثير من الكفاءة الخطابيّة. الحقّ أنّ هذه الكفاءةَ إصلاحٌ من أكثر الإصلاحات الّتي تُفكِّر فيها إنجلترا. ذلك بأنّ النّموذج القديم للسياسيّ الخطابيّ، الّذي يعود إلى العصر الوسيط، في طريقه إلى الزّوال.

(20)

في النّزاعات الكبرى، تَصنعُ قوّةُ الشّعوب قوّةَ الحكّام.

(23) الحروب اليونانيّة ـ الفارسيّة Les Guerres médiques: «(بالفارسية: جنگهای ایران ویونان) هي سلسلة حروب بين الإمبراطورية الأخمينية والدويلات اليونانية بدأت في عام 499 ق.م وانتهت في 449 ق.م. بدأ الصراع بين اليونانيين والفرس عندما احتل كورش الكبير منطقة إيونية اليونانية عام 547 ق.م. عانى الفرس في السيطرة على سكان إيونية ذوي النزعة الاستقلالية فعينوا عدة طغاة ليحكموا المدن في المنطقة، مما شكل مشاكل كثيرة لليونانيين والفرس على حد سواء». انظر ويكيبيديا. (المترجم).

(24) حرب الثلاثين العام (بالإنجليزية: Thirty Years’ War): «هي سلسلة صراعات دامية مزّقت أوروبا بين عامي 1618 و1648 م، وقعت معاركها بدايةً وبشكل عام في أراضي أوروبا الوسطى (بخاصّة أراضي ألمانيا الحالية) العائدة إلى الإمبراطورية الرومانية

المقدسة، ولكن اشتركت فيها تباعًا معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذاك العصر، ما عدا إنجلترا وروسيا». انظر ويكيبيديا. (المترجم).

(25) حروب الثورة الفرنسيّة (بالفرنسية: Guerres de la Révolution française): «سلسلة من الصراعات العسكريّة الشاملة التي استمرّت من 1792 حتى 1802 ونتجت على أثر الثورة الفرنسية. حُرضت فرنسا ضد بريطانيا العظمى، والنمسا، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبروسيا، وروسيا، وعدد من الممالك الأخرى. هي مقسمة إلى فترتين: حرب التحالف الأول (1792-1797) وحرب التحالف الثاني (1798-1802). اقتصر القتال في البداية على أوروبا، ويُفترض أنه اتخذ تدريجيًا بعدًا عالميًا. بعد عقد من الحرب المستمرة والدبلوماسية العدوانية، احتلت فرنسا مناطق في شبه الجزيرة الإيطالية، والبلدان المنخفضة، وأما راينلاند في أوروبا فعادت إلى لويزيانا في أمريكا الشمالية. ضمن النجاح الفرنسي في هذه الصراعات انتشار المبادئ الثورية في معظم أنحاء أوروبا». انظر ويكيبيديا. (المترجم).

(26) الحرب الأهلية الأمريكية، وهي صراعات داخليّة حدثت في داخل الولايات المتحدة في الفترة من عام 1861 إلى 1865. واجه فيها الاتحاد (الولايات المتحدة) الانفصاليين في إحدى عشر ولاية جنوبية مجتمعة لتكون الولايات الكونفدرالية الأمريكية. وقد فاز الاتحاد بهذه الحرب التي ما زالت تعدّ الأكثر دموية في تاريخ الولايات المتحدة. انظر ويكيبيديا. (المترجم).

الكتاب السّابع آفاق مستقبليّة

الفصل الأوّل بعض تبعات الحرب

(1)

تفتحُ الحربُ الأوروبيّةُ حقبةً من كُبْريات حقبات التّاريخ، حيث تُغيّرُ الشّعوبُ، على غرار ما حصل في عصر الإصلاح وفي عصر الثّورة، مفاهيمَها عن الحياة، كما تُغيّرُ مثالها الأعلى، ونُخَبها.

(2)

الحقّ أنّ أهمّ تداعيات الحرب ستتكشّف في أعقاب السّلام. والحال أنّ الحرب ستستمرّ في الصّراعات الاقتصاديّة، والصّناعيّة، والاجتماعيّة الّتي ستُحَوِّل مستقبل الشّعوب.

(3)

ربّما ستكون تبعات الصّراع الأوروبيّ الماديّة أقلّ أهميّة من التّحوّلات الذّهنيّة الّتي سيتسبّب فيها. الواقع أنّ تغيّرات العالَم الخارجيّ تُشكِّلُ سريعًا عالمًا داخليًّا جديدًا.

(4)

من دون شكّ لن ترى أوروبا حدودها الجغرافيّة تتغيّر كثيرًا بفعل الحرب، بيد أنّ حدودها النّفسيّة ستتغيّر كثيرًا.

(5)

تقلبُ الحروب كلّ سلّم القيم الأخلاقيّة. فالفعل الّذي يُعاقَب عليه بشدّة في الزّمن العاديّ، سيُصبِح في حال الصّراع فضيلةً ومجدًا. تختفي المصلحة الفرديّة. والحياة البشريّة لا تعود تملك سوى أهميّة جماعيّة.

(6)

حقيقة الأمر أنّ البرهان التّجريبيّ على أنّ سيطرةَ شعبٍ أجنبيٍّ العسكريّةَ تُشكِّلُ عمليّة مُكلِفةً، وغير مُنتِجة، ومن ثمّ غير مُجدية، قد يُنقِذُ العالَم من مذابح جديدة.

(7)

لاحظنا وبحقّ أنّ العباقرة العظماء غالبًا ما يظهرون في فترات الحرب. فالعصر الّذي شهِد ولادة رافايل، وميكل أنجلو، وغاليليه، وكوبرنيكوس هو العصر الّذي عرف فيه العالم دمارًا غير مسبوق بفعل الصّراعات الوحشيّة. والحال أنّ ديكارت ألّفَ كتابه **مقالة في المنهج** في المعسكرات. قد يبدو إذًا أنّ الحرب تُشكِّل مُحَفِّزًا لكلّ الطّاقات. الواقع أنّ مجموعةً من التقدّمات العلميّة والصّناعيّة ما كانت على الأرجح لتتحقّق من دون النّزاع الحاليّ.

(8)

من شأن الحروب أن تُحَمِّسَ أو أن تُحبِطَ أيَّ شعبٍ وذلك تبعًا لحاله الذّهنيّة عندما تندلع. فحرب 1870 أحبطت فرنسا بشكلٍ ملحوظ. أمّا الصّراع الحاليّ، فعلى العكس، أيقظ جهودها الغافية.

(9)

عندما خالت ألمانيا نفسها واثقةً بتأمين أسواق جديدة، خسرت تلك الّتي كانت تمتلكها، بخاصّة في الشّرق. من دون شكّ ستكون اليابان المستفيد الرّئيسيّ من الحرب الأوروبيّة.

(10)

ماذا يجد الجنديّ الألمانيّ في منزله، الجنديّ الّذي كان يحلم برفاهيّة غير محدودة من جرّاء الثّروات المنهوبة، عندما تقوده جروحه إلى العودة إليه؟ يستوجبُ التّهديدُ بفرض ضرائب عملًا مُضنيًا وفقرًا دون بارقة أمل. قد تُغيّر هذه الاستنتاجات الّتي تبيّنها ملايين النّاس أفكارهم حول منافِع الحروب.

(11)

يُمكنُ الحقائق وحدها أن تُعَلِّم الشّعب الألمانيّ قيمةَ نظريّات فلاسفته.

(12)

الواقع أنّ الخراب الاقتصاديّ، وفقدان الزّبائن، وقطع العلاقات التجاريّة، تمثِّل كلّها الوجه الآخر لانتصارات ألمانيا العقيمة. تُظهر كلّ الإحصاءات أنّ «Mittel Europa»(27)، وإن

كانت مُنَظّمة بشكل مثاليّ، لا يُمكن أن تحلّ محلّ التّجارة مع سائر الدّول. ستقف في وجهِ الكتلةِ الاقتصاديّةِ كتلةُ القوى الأخرى الأقوى.

(13)

النّتائج المباشرة للحرب ستكون ملموسة للغاية: ندرة في اليد العاملة، وفي الموادّ الأولى، وزيادة الرّسوم الضّريبيّة، والحاجة إلى زيادة الإنتاج على الرّغم من تناقص الموارِد. بعيدًا من هذه الظّواهر المرئيّة، ستظهر نتائج بعيدة المدى تنطوي على كثير من الإمكانات بحيث لا يُمكن معرفتها اليوم.

(14)

قدَّر إحصائيٌّ ألمانيٌّ تكلِفة الحرب الأوروبيّة في خلال السّنوات الأخيرة الثّلاث: نفقات ماليّة 430 مليارًا، سبعةُ ملايين قتيل، وخمسة ملايين مُعَوَّق. يصعبُ اكتشافُ المنفعة الّتي يُريد كتّاب هذه الكوارث جَنْيَها من الحديث عنها.

(15)

من دون الحديث عن دُوَل من مثل روسيا، حيث المصرف، والصّناعة، والتّجارة كانت مُؤلمَنة(28)، سيتوسّع التّغلغلُ الألمانيُّ سريعًا ليُشمل كلّ مكان. يُمكن الحربُ وحدها أن تكشف عن الخطر الّذي عرَّضتِ الإمبراطوريّة الألمانيّة العالمَ له.

(16)

من دون شكّ، ستكتسب الزّراعةُ بعد الحرب أهميّة تتفوّق على الصّناعة. لا يتوفرّ لجميع الشّعوب مخزونٌ كافٍ من اللّحوم والحبوب بعد أن استنفدته الجيوش الضّخمة الّتي وجب إطعامها. والحال أنّ الشّعوب ستبحث عبثًا عن التزوّد بالمؤن من الخارج. وعلى فرض إيجاد موارد غذائيّة جديدة، فإنّها ستشهد ارتفاعًا كبيرًا في الأسعار. والحقّ أنّ الاستثمار الزّراعيّ لأراضي المقاطعات والمستعمرات سيُصبح حتمًا شغل الشّعوب الشّاغل.

(17)

في بعض الدّول، وفي إنجلترا تحديدًا، أُبْعِدَتِ الصّناعة الزّراعيّة إلى المصاف الأخير. بيد أنّ تهديد المجاعة الّتي تسبّبت التّفجيراتُ فيه جعلها تنتقل سريعًا إلى المصاف الأوّل. سيحصل الأمر عينه في جميع الدّول الّتي تتطلّع إلى حفظ استقلالها.

(18)

تكفي العودةُ نصفَ قرنٍ إلى الوراء لنتبيّن أنّه مع وجود زراعةٍ مزدهرة، وصناعة متوسِّطة، كان يُمكن أيُّ شعبٍ أن يحظى بحياة أكثر سعادة من تلك النّاجمة عن تطوّر مصانعه المبالَغ فيه. من دون شكّ ستكمن واحدة من التّبعات المفيدة للحرب في التخلّي قليلًا عن المصنع لصالِح الأرض.

(19)

سوف يشعر السكّان المدنيّون بثقل الحرب على وجه الخصوص في زمن السِّلم.

(20)

إفقار الطّبقات الوسطى، بوصفه تبعةً من تبعات الحرب، سينزع عن الدّول عنصرًا كبيرًا من عناصر استقرارها.

(21)

سوف تخرج فرنسا حتمًا من هذه الحرب مُنهَكةً رجالًا ومالًا، لكنّها قد تتحرّر من الأوهام السّياسيّة والاجتماعيّة الّتي انتهى الأمرُ بها بأن تسبّبت في انحطاطٍ مُستَعصٍ.

(22)

ستكون الحرب الـمُدَمِّر الأكبر لكلّ العادات: العادات العسكريّة، والعادات الصّناعيّة، والعادات الذّهنيّة على وجه التّحديد.

(27) في ما يتعلّق بالتاريخ الثقافيّ، لا تتوافق فكرة Mitteleuropa مع الواقع الجغرافيّ ولكن مع تمثيل دور اللغة والإبداعات الأدبيّة والفكريّة الألمانيّة في أوروبا الوسطى. الخريطة الذهنيّة لـ Mitteleuropa لها حدود متغيّرة وفاقًا للعصر. إذا عدنا إلى المستوطنات الألمانيّة الأولى شرق حدود الإمبراطورية الرومانية المقدسّة، فإنّنا نجد أنّ Mitteleuropa تمتدّ إلى الأطراف الغربيّة لروسيا ودول البلطيق. راجع في هذا الصّدد:

https://www.universalis.fr/encyclopedie/mitteleuropa/1-definitions-geoculturelles/.

(28) مؤلمنة أو مجرمنة: أي إضفاء الطابع الألمانيّ أو الجرمانيّ عليها.

الفصل الثّاني تهديداتُ السّياسةِ المستقبليّةُ

(1)

الواقع أنّ معتقدات سيّاسيّة جديدة ستولد بالضّرورة بعد الحرب لدى النّاس الجُدد، لكنْ ستنجم عن تصادمها مع تصوّرات قديمة جدًّا يستعصي اقتلاعها من جذورها، نزاعاتٌ عنيفةٌ.

(2)

المشكلاتُ الّتي يخلقها السِّلم ستجد نفسها مُثقلة بما هو غير متوقَّع شأنها في ذلك شأن المشكلات الّتي أثارتها الحرب. لذا يغدو من الميؤوس منه أن يُدعى السّياسيّون وحدهم لحلِّها.

(3)

ينبغي منذ الآن التّفكير في أنّ فرنسا يُمكن أن تجد نفسها، بعد انتهاء الحرب، من دون موادّ أوّليّة، ومن دون صناعات، ومن دون بضائع، ومن دون فحم، ومع ضرائب زادت ثلاثة أضعاف، وكثير من المدن الّتي تحتاج إلى بنائها مُجدَّدًا. أن تُعهد إدارةُ البلاد إلى مُنَظِّرين سياسيّين وليس إلى صِناعيّين، وإلى مزارعين، وإلى تُجَّار، فهذا يعني التّسبّب في الخراب والفوضى.

(4)

سيبقى التّفكير النّقديّ والتّفكير الدّغمائيّ دائمًا مُتباينَينِ للغايةِ دائمًا، ولذلك لا يستمرّان في حالة صراع. فالأوّل ينتمي إلى دائرة العقلانيّ، في حين أنّ الثّاني ينتمي إلى دائرة الصّوفيّ والوجدانيّ.

(5)

التّفكير الدّغمائيّ يعتقد، ولا يُفَكِّر البتّة. والحقّ أنّه لا يسود في الأديان فحسب، لكنّه يسود أيضًا في المؤسّسات الاجتماعيّة والعسكريّة.

(6)

اليعقوبيّة(29)، والحمائيّة، والاشتراكيّة الّتي وُضِعَت في خدمة الدّولانيّة يُمكنها أن تُشكّل بعد الحرب آفات مُهلِكة شأنها شأن الغزو الألمانيّ. الواقع أنّ الإكراهات، ومحاكم تفتيش، والمُصادرات، وفرض الضّرائب ستُصبِح عندئذٍ وسائل الحكم الأساسيّة.

(7)

في أيّ بلدٍ لا تتسامح فيه الأحزاب السّياسيّة، ستبقى المركزيّة الإداريّة ضروريّة لمدّة طويلة. أمّا اللا مركزيّة الصّناعيّة والماليّة فتبدو مستحيلةً وحدها.

(8)

تكمن الصّعوبة الأكبر الّتي ستُواجِه الحكومات المستقبليّة في تحقيق توازن المصالِح ـ الّتي غالبًا ما تتعارض مع مختلف الفئات الاجتماعيّة ـ على نحوٍ لا تؤذي معه بعضها بعضًا، وتحترم المصلحة العامّة.

(29) أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحما ودما، فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده بل هو هو.

الفصل الثّالث الحقّ والقوّة

(1)

يُمكن أن ينقسمَ التّاريخُ الفلسفيُّ للحقّ إلى ثلاث مراحل مُتعاقبة: 1 ـ مرحلة الحقّ البيولوجيّ. الّذي يحكم حياةَ عالَمِ الحيوان، وعلاقات الإنسان مع الحيوانات. لا يعرف هذا الحقّ سوى قاعدة واحدة، وأعني قانون الأقوى. 2 ـ الحقّ في داخل المجتمعات. يتميّز بسيطرة الكائن الجمعيّ على الكائن الفرديّ في ما يتعلّق بالمصلحة العامّة. 3- الحقّ في خارج المجتمعات أو القانون الدّوليّ الّذي تكوَّن حصرًا حتّى الآن من سيطرة القوّة، والواقع أنّه لن يتطوّر إلّا عندما تتوصّل المصالح المشتركة للشّعوب إلى خلق جُملة جزاءات تجعله يضطلع بفرضها.

(2)

في وسط أيّ مجتمعٍ، تكون الأولويّة للحقّ على حساب القوّة. في العلاقات بين مجتمعات مختلفة، على العكس، تكون الأولويّة للقوّة على حساب الحقّ.

(3)

في نظر الشّعوب ذات الذّهنيّة العسكريّة المحض، يُمثِّلُ حقُّ القيام بشيءٍ ما ببساطة سلطة إكمال هذا الشّيء. وبعد، الواقع أنّ الهنديّ الحمر الّذي كان يسلخ فروة رؤوس سجنائه، وآكل لحوم البشر الّذي كان يلتهمهم، والألمانيّ الّذي ينهب ويذبح، جميعهم يؤكِّدُون امتلاكَهم الحقّ في القيام بهذه الأفعال لأنّهم يمتلكون السّلطة. الحقّ أنّ المدفَع الوسيلةُ الفعّالةُ لمواجهة مثل هذه المفاهيم.

(4)

يجد حقّ تدمير الحيوان مردَّه الوحيد في القوّة النّاجمة عن ذكائنا. بمقتضى المبدإ نفسه هذا منحَ الفلاسفةُ الألمان الأعراقَ البشريّة المتفوِّقة حقّ إبادة الأعراق الأكثر ضعفًا. والحال أنّ كلّ الحضارات باتت مُهَدَّدةً بالدّمار عن طريق المجموعة البشريّة الأقوى موقّتًا، ناهيك بكون الشّعوب قد تعود إلى بربريّة مرحلة ما قبل التّاريخ.

(5)

حقيقة الأمر أنّ تعريفات الحقّ، بتحرّرها من محتواها الميتافيزيقيّ، تعود إلى التّعريف الوارد في قانون جستنيان(30): «ما يُوجدُ في بلدٍ ما مفيد للجميع أو لأكبر عددٍ مُمكن». المنفعة إذًا ستكون الأساس الوحيد للحقّ، وما دامت هذه المنفعة تتغيّر تبعًا للدّول، فلن يكون بمقدورنا الحديث عن قانون دوليّ.

(6)

انتهى الأمرُ بتطوّر الأخلاق إلى خلقِ جُملة مبادئ أقرّتها كلّ الأمم المتحضِّرة، ذلك بأنّ انتهاكها من شأنه أن يُثيرَ سخطًا عالميًّا. تُثمِّن الشّعوبُ عاليًا، عندما تُعلن الصّراع من أجل الحقّ، الدّفاعَ عن مثلِ هذه المبادئ.

(7)

في العلاقات بين أفرادٍ من نفس المجتمع، يُعَدُّ الدَّرَكُ الدّاعم الضّروريّ للحقّ. في العلاقات بين الشّعوب، وحده المدفع استطاع حتّى الآن أن يحلّ محلّ الدَّرَك.

(8)

الحقّ ابن الضّرورات الاجتماعيّة. الحقيقة أنّ القوانين لا يُمكن أن تُقَنَّن بصورة نافعة إلّا بعد أن تستقرّ بالفعل عن طريق العادة.

(9)

لا تملك النّصوص القانونيّة أيَّ قيمةٍ إلّا بعد أن تستقرّ في النّفوس. من دون أسنادٍ أخرى من مثل العقاب، تبقى هذه النّصوص من دون قوّة.

(10)

بادئ ذي بدء، لم يُمثِّل الحقّ المدنيّ سوى توسيعٍ للحقّ الدّينيّ. أمّا المشيئات الإلهيّة فقد استُكمِلت لاحقًا عن طريق مشيئات الملوك، والكثير من المشيئات الأخرى استُكمِلت لاحقًا أيضًا عن طريق مشيئات الجماعات. بحسب بعض الشّعوب، من مثل الشّعوب الإسلاميّة، الّتي لم تُميّز الحقّ المدنيّ منَ الحقّ الدّينيّ، فإنّ أيَّ قانونٍ لا يدعمه الدّين يبقى من دون هيبةٍ. ينسى مستعمرونا أحيانًا هذا الأمر.

(11)

إنّ حقّ الغزو، بما هو استمرار للأفكار القديمة، والحقّ في الاستقلال، بما هو تصوّر أنتجته الشّعوب الحديثة، لا يُمكن التّوفيق بينهما على الإطلاق. والحال أنّ الحروب بين ألمانيا وباقي العالَم ستتكرّر حتّى زوال واحدٍ من هذين المبدأين.

(12)

الواقع أنّ تحالفَ دولةٍ ضعيفةٍ مع دولة قويّة ليس له سوى نتيجتين مُمكنتين بالنّسبة إلى الدّولة الضّعيفة: إمّا استمرارها إذا انتصرت الدّولة القويّة، وإمّا خرابها إذا هُزِمَتِ الدّولةُ القويّةُ. لم تحصد تركيا من تحالفها مع ألمانيا سوى خسارة البلاد العربيّة، وأرمينيا، وبلاد ما بين النّهرين، وسوريا، فضلًا عن انهيار ماديّ كامل.

(13)

الحقّ الّذي يروم أن يحظى باحترام يجب أن تصحبه القوّة.

(14)

لم تضطهدِ القوّةُ الحقَّ منذ زمن طويل، ذلك بأنّ الفكرة المُضطهدَة تُصبِح سريعًا مولِّدًا للقوّة.

(15)

يُعلِّم علماءُ النّفس الألمان أنّ النّجاح يُفضي إلى إقرارٍ أعمى، وأنّ الحقَّ يرتبطُ دائمًا، في خَلَدِ الشّعوب، بالقضيّة الرّابحة. ومع ذلك، وجب عليهم أن يُلاحظوا كيف وقفت الدّول المحايدة في وجه ألمانيا المنتصِرة.

(16)

ينتهي الأمر بالتّعسّف في استخدام القوّة إلى تدمير هذه القوّة. فالعُنْفُ والجرائمُ الماضية كُفِّرَ عنها من قِبَلِ الأبناء الّذين تذمّروا طويلًا من رزوحهم تحت وطأة التّعسّفات الّتي ارتكبها آباؤهم.

(17)

نادرًا ما حُكِمَ عمليًّا على قيمةِ نظام فلسفيّ، على امتداد التّاريخ، كما حصل مع الطّرح الألمانيّ في أثناء الحرب، ونعني الطّرح الّذي أجاز للشّعوب القويّة أن تستعبد الشّعوب

الضّعيفة.

(18)

الاستعباد ليس الغزو.

(19)

ينتهي الأمر بالقوّة، التي لا تملك سندًا لها سوى الأسلحة الماديّة، إلى أن تُصبِح ضعيفة شأنها في ذلك شأن الحقّ من دون قوّة.

(20)

الحقّ المؤسَّس على العنف يُمكن أن يُفرَض لبعض الوقت، لكن لا يُمكن أن يستمرّ. سرعان ما يخلق هذا الحقّ تحالفاتٍ تُعارضه بموجب حقٍّ أقوى. الواقع أنّ ولادةَ هذه التّحالفات قانونٌ ثابتٌ من قوانين التّاريخ. ونراها تتشكّب بعد كلّ محاولة السّيطرة الأوروبيّة، سواء في حقبة شارلكان، أو حقبة لويس الرّابع عشر، أو حقبة نبليون.

(21)

حقيقة الأمر أنّ الشّعوب أحرزت تقدّمًا كبيرًا من خلال تنظيمها قوّة اجتماعيّة أكثر اقتدارًا من القوّة الفرديّة، واجهت هذه الأخيرةَ بها. والحقّ أنّ التقدّم الاجتماعيّ الرئيسيّ في المستقبل ـ التّقدّم الّذي لا يزال بعيدًا ـ سيتمثّل في أن يستبدل القوّة المجتمعيّة لكلّ الشّعوب بالقوّة العنفيّة لشعبٍ بعينِه.

(22)

إنّ حرْق الكاتدرئيّات، والمكتبات، والأعمال الفنّيّة، والمذابِح الممنهجة، وترحيل العبيد، تُمثِّل جميعًا تراجعًا في الحضارة. وعليه، إذا طال أمد هذا التّراجع، فيُمكن أن يُصبِح حاسمًا، ومن شأنه أن يسلب الشّعوبَ كلَّ الفتوحات الأخلاقيّة الّتي تحقّقت على امتداد قرونٍ من الجهود المبذولة.

(23)

من وجهة نظر النّجاح العسكريّ، يبدو مفيدًا أن يُكرَه الإنسانُ بدافع الكرَم، والإنسانيّة، والإنصاف، واحترام الالتزامات، لكنّ الفائدة لا تستمرّ إلّا إذا ظللنا الأقوى على الدّوام.

والحال أنّ التّاريخ لم يزوّدنا بتجربة عن شعوبٍ ظلّت الأقوى على الدّوام.

(24)

إنّ الشّعوبَ الضّعيفةَ تؤنّبها ضمائرها بسهولة، أمّا الشّعوب القويّة فلا تعرف هذا الوازع.

(25)

يُجِلُّ الغزاةُ العنفَ ما داموا الأقوى. لكن عندما يُصبحون الأضعف، يُسارعون إلى لَعْنِه.

(26)

وجب على فقهاء لاهاي القانونيّين أن يتناولوا جُرعةً من الأوهام لكي يخالوا ممكنًا وضع نصوص قانونيّة تفتقر إلى الجزاءات. الحقّ أنّ التّاريخ لم يعرف أبدًا قانونًا شبيهًا لا دينيًّا ولا مدنيًّا.

(27)

قد يُشكِّلُ منعُ العنف من أن يبقى القانون النّهائيّ الّذي يحكم العلاقات بين الشّعوب مشكلةَ المستقبلَ الأصعب. مع ذلك، لا يُمكن أن تتقدّم الحضارة من دون إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة.

(28)

ينبغي للحضارة أن تُحقِّق أيضًا المزيد من التّقدُّم قبل أن تتمكّن حقوق الشّعوب من امتلاك أسناد أخرى لها، من مثل عدد جنودها.

(29)

يكمن دورُ العدالةِ الاجتماعيّةِ في مَنْعِ انتهاكِ القواعد الضّروريّة من أجل حية المجتمع وذلك عن طريق فرض عقوبات. الحقَّ أنّ دورَ العدالةِ الدّوليّةِ المستقبليَّ سيكون عينُه دورَ العدالةِ الاجتماعيّةِ عندما سيغدو من الممكن أن يضطلع بفرض عقوبات. هذه الإمكانيّة لم تظهر بعد.

(30)

الحقيقة أنّ الارتياب العام بالشّعوب من شأنه أن ينتهك التزاماتها. والحال أنّ قوانينَ الإنسانيّةِ ستُصبِح من دون شكّ أصلَ العقوباتِ الضّروريّةِ من أجل إنشاء قانون دوليّ.

(31)

سواء كانت القوّة ذات طابع أخلاقيّ أو ماديّ، وسواء تمثّلت في قوّة القوانين أو الأفكار أو الأديان أو الأسلحة، فإنّها ستظلّ بالضّرورة متسيّدة على العالَم. يكمن واحد من أهمّ تقدّمات الحضارة في إحلال القوى الأخلاقيّة محلّ القوّة المُسَلَّحة.

(32)

تنبني الحضاراتُ على الأفكار، لكنّها لا تُدافِع عن نفسها إلّا عن طريق المدافع.

(30) قانون جستنيان الأوّل (باللاتينية: Justinian Digest) هو عبارة عن مجموعة من القوانين التي كانت العديد من الأمم المختلفة تتبعها، إذ أمر الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول (527 حتى عام 565)، بعضًا من رجال الدين المسيحي في مملكته بانتقاء مجموعة من القوانين الرومانية. وعرفت هذه المجموعة باسم كوربس جوريس سيفيلز، وتعني مجموعة القوانين المدنيّة، وأُطلق عليها أيضًا قانون جستنيان. عُرف عن هذه المجموعة أنها من أكبر الإسهامات الرومانية في مجال الحضارة. جمعت بين القوانين الرومانية القديمة والمبادئ القانونية، ممثلة في عدد من القضايا. قسّم علماء القانون، الذين درسوا قانون جستنيان، القانون إلى عدة أقسام: المبادئ العامة: واستخدمت كتابًا دراسيًّا لدارسي القانون والمحاماة، والمخطوطة: مجموعة من التشريعات والمبادئ، والقوانين المستحدثة والقوانين الجديدة المقترحة، ومجموعة القوانين: وهي سجل قضائيّ يُغطي الكثير من المحاكمات والقرارات. انظر ويكيبيديا. (المترجم).

الفصل الرّابع الإصلاحات والقوانين

(1)

يستغرقُ فهمُ أنّ الإصلاحات الحقيقيّة لا تتمّ عن طريق القوانين سنواتٍ طويلةً من السّفر والملاحظات.

(2)

لن يمتلك العلم والسّياسة الطّرائق نفسها. فالعلم ينشغل على وجه الخصوص بكلّ ما هو عام، أمّا السّياسة فتنشغل بكلّ ما هو خاصّ. فالعلم بدراسته الأشياء الثّابتة أو الأشياء المثبَّتة بشكل مصطنع، يضع بسهولة القوانينَ الّتي تحكم عناصر الأشياء. على العكس، تجد السّياسة نفسها في حضرة كائنات حيّة غالبًا ما تقوم بردّات فعل غير متوقّعة.

(3)

تتوقّف قيمة المؤسّسات حصرًا على الطّريقة الّتي تُطبِّق فيها هذه القيمة. ما من مؤسّسة تملك فضيلة مطلقة.

(4)

نادرًا ما يكونُ إصلاحٌ سيّاسيّ أو اجتماعيّ نافعًا عندما لا يُفضي إلى تحوّلٍ ذهنيّ.

(5)

لا تُعَدُّ القوانين فعّالة إلّا بقدر ما تعقِبُ العادات من دون أن تبحث عن أن تسبِقَها. والحال أنّ دورها يقتصر على فرض عقوبات على الممارسات وليس على خلقها.

(6)

لا يُمكنُ أيّ إصلاحٍ أن يستمرّ إلّا إذا مثَّل جميعةَ عددٍ من الإصلاحات المتتالية.

(7)

تُصبِح القوانين والأنظمة مُضِرَّةً عندما يقتصر هدفُها ببساطة على تلبية متطلّبات حزبٍ بعينه، عوَضًا عن ترجمة احتياجات المصلحة العامّة.

(8)

تكفّ القوانين عن أن تكون صحيحة عندما تُطَبَّق على كائنات بشريّة ذات ذهنيّات غير متكافئة. فحُكم مستعمرةٍ عن طريق قوانين أوروبيّة تحت ذريعة التّماثل من شأنه أن يُشكِّل يوتوبيا خطيرة.

(9)

لا يُمكن أن يُفهَم نصٌّ قانونيّ وأن يُحْتَرَم إلّا إذا صيغَ في مصطلحات مختصَرة وواضحة. فالنصّ القانونيّ الطّويل هو بالضّرورة نصّ سيّئ ذلك بأنّنا لا نستطيع أن نُمسِك دائمًا بكلّ أجزائه.

(10)

تكمن واحدةٌ من قوى ألمانيا في أنّها عرفَت، بفضل نزعتها العسكريّة، كيف تُراعي الأنظمة والقوانين الّتي لم تحترمها الشّعوب اللاتينيّة إلّا نادرًا.

(11)

إنّ زعزعة احترام قانونٍ واحدٍ يعني زعزعة قوّة كلّ القوانين الأخرى. حقيقة الأمر أنّ مراسيمَ وقف السّداد في بداية الحرب، الّتي زوّدت النّاس بذرائع للتنصُّل من الالتزامات الرّسميّة، وجّهت ضربةً قاسية إلى البنية الاجتماعيّة، ضربةً لن تتعافى منها إلّا ببطء.

(12)

لن يتحقّق تقدّمٌ حقيقيٌّ بعد الحرب عن طريق سنّ قوانين جديدة، بل عن طريق إلغاء عددٍ كبيرٍ منها.

(13)

لن تكون الحربُ عديمة الفائدة إذا استطاعت أن تكشف لنا أنّه عوضًا عن مُطالبَةِ الدّولةِ الـمُسْتَمرّة بالإصلاحات، ينبغي لنا نحن أن نقوم بالإصلاحات.

(14)

لا يُمكن لقوّة أن تستمرّ لدى أيِّ شعبٍ في ظلّ عدمِ استقرار القوانين، والمؤسّسات، والأفكار، والعقائد.

(15)

نحن لا نصنع الحقَّ، بل يصنع نفسه بنفسه. ينطوي الشّعارُ الموجزُ هذا على تاريخ الحقّ برمّته.

الفصل الخامس مستقبل التّرابط بين الشّعوب

(1)

إنّ ارتفاع ثمن المعيشة في أثناء الحرب، والحرمان الّذي عاناه كلّ بلدٍ من مجموعة من المنتجات، أثبتا عمليًّا التّرابط الصّناعيّ، والتّجاريّ، والماليّ بين الشّعوب. أشار علماء الاقتصاد إلى هذا التّرابط سابقًا، لكنّهم لم ينجحوا في إقناعِ أيّ أحد.

(2)

يُمكننا أن نُعطي أمثلةً على التّرابط بين الشّعوب حقيقة أنّ شركات المعادن في شرق فرنسا كانت تحصل على الفحم اللازم لها من Westphalie وكانت تُعطيها في المقابل خام الحديد. وعليه، لم يستطع خبراءُ المعادنِ الفرنسيّون أن يستغنوا عن الفحم الألمانيّ، كما أنّ خبراء المعادن الألمان لم يستطيعوا الاستغناء عن الموادّ الخام الفرنسيّة.

(3)

الواقع أنّ التّرابط بين الشّعوب تجلّى حتّى في أثناء الحرب. فالقطن الضّروريّ من أجل صناعة المتفجِّرات يأتي من الولايات المتّحدة، والنيترات المستخدَمة في الزّراعة تأتي من تشيلي، وكبريتات الحديد Pyrites الضّروريّة في تحضير حامض الكبريتيك ـ أساس بعض الذّخائر ـ تأتي من إسبانيا ومن النّرويج.

(4)

على الرّغم من المزايا المؤكَّدة للتجارة الحرّة، واحتمال انتصارها المستقبليّ، يُمكن الحربُ أن تُزوِّد المحافظين بقوّة كبيرة. الحقّ أنّها أظهرت للشّعوب ضرورة إنتاج أكبر قدر من الموادّ من أرضها، الموادّ الّتي تحتاج إليها لكي تضمن استقلالها.

(5)

على الرّغم من التّباعدات الرّاسخة في البنية الذّهنيّة الّتي تفصل بين الشّعوب، فإنّ هذه الشّعوب محكومة بعلاقات تجاريّة آخذة في الاتّساع. سوف تستمرّ في كراهية بعضها بعضًا، لكنّها لن تستطيع أن تتجنّب تبادل المنتجات المختلِفة الّتي يحصل عليها كلّ شعبٍ تبعًا لقدراته، وأرضه، ومُناخه.

(6)

يُمكننا أن نأملَ على نحوٍ منطقيّ أن يكتشف الفلاسفةُ، بعد الصّراعات الوحشيّة الّتي قتلت ملايين النّاس، ودمّرت مدنًا قديمة، وهدمت إمبراطوريّات قويّة، أنّه تبعًا للتّرابط بين الأمم، يغتني أيّ شعبٍ من خلال تصدير منتجاته أكثر ممّا يستفيد من تدمير زبائنه، ومن تدمير ثرواتهم عن طريق طلقات المدافِع.

(7)

عندما ستحصل أوروبا على سلامٍ طويل الأجل، لن تُحافظ قوّة الحقّ ولا قوّة الاتّفاقات الدّوليّة عليه، بل البرهان القاطع على التّرابط الاقتصاديّ بين الشّعوب.

(8)

يُمكنُ التّرابط بين الشّعوب، بوصفه متفوِّقًا على كلّ الإرادات، أن يُفضي إلى تحوّل عميق في الأفكار الّتي لا تزال تقود الأمم وأسيادها.

الفصل السّادس عَسكَرةُ العالَمِ

(1)

منذ فجر العصور الأولى، كانت القدرةُ على الدّفاع عن النّفسِ شرطَ الحياةِ الأساسيَّ على الدّوام. فالكائن منزوع السّلاح يُسحَق سريعًا.

(2)

تُكابَدُ الضّروراتُ ولا تُناقَش البتّة. على الرّغم من أنّ العسكرة لا تتوافق مع تقدّم الحضارة، فإنّها تبدو وسيلة الدّفاع الوحيدة المعروفة في وجه الدّول المقتدرة عسكريًّا. ينبغي للشّعوب، قبل التّفكير في التّقدُّم، أن تتجنّب استعبادَها.

(3)

الواقع أنّ عسكرةَ العالم المُتَحَضِّر، وكلَّ النكوصات الّتي ستنجم عنه، قد تغدو خصائص عصرنا الحاليّ.

(4)

بعد أن استندت المجتمعاتُ تباعًا إلى أساسٍ دينيّ، فعسكريّ، فقانونيّ، ومن ثمّ إلى أساس اقتصاديّ، يبدو أنّها تعود إلى الحال العسكريّة المحض.

(5)

تتطوّرُ الحاجةُ إلى التّوسّع وإلى السّيطرة حتمًا لدى الشّعوب الّتي تتعاظم قوّتها العسكريّة. الحقيقة أنّها تجهد في الاستفادة من أسلحتها ذات الأثمان الباهظة.

(6)

تُشكِّل الأسلحةُ في زمن السِّلم قسط التّأمين في وجه الاعتداءات الخارجيّة. لكنّ تطوّر العتاد الحربيّ سيجعل هذا القسط هدّامًا للغاية، ذلك بأنّ قلّة قليلة من الشّعوب ستكون قادرةً على تحمّله.

(7)

لا يوجد لدى الأمم المعسكَرة للغاية حقّ آخر سوى إرادة الرّؤساء. شكّلت حادثة سافيرن(31) Saverne، حيث شاهدنا عقيدًا بروسيًّا يزجّ بمدنيّين في قبوٍ لا لشيء إلّا لأنّه استاء من شكلهم، مثالًا شهيرًا عن الذّهنيّة الّتي كوّنها إحلال الحقّ العسكريّ محلّ الحقّ المدنيّ.

(8)

ستكمن إحدى أكبر مشكلات المستقبل في فرض نزعة عسكريّة صارمة على الحضارات الراقية، نزعة تتعارض مع تطوّر الذّكاء، لكن لا غنًى عنها من أجل المحافظة على الاستقلال.

(9)

إذا أُجبِرَت كلّ شعوب العالَم على أن تتعسكر، لكي تحمي نفسها من العسكرة الألمانيّة، ستختفي الفردانيّة حتمًا، حتّى بين الأمم التّي كانت فيها هذه الفردانيّة الأكثر تطوّرًا.

(10)

ينتهي الأمرُ بالمبالغة في التسلُّح، المبالغة التي تخلق قوّة شعب، بالتّسبّب في دماره. فالإمبراطوريّات الّتي أُسّست حصرًا على النّزعة العسكريّة انهارت بفعل هذه النّزعة. الواقع أنّ انحطاط الإمبراطوريّة الرّومانيّة بدأ عندما لم تعد تملك سندًا لها سوى القوى العسكريّة.

(11)

عندما تُقَدِّمُ طرائقُ تسلّح شعبٍ ما تفوّقًا بديهيًّا، تُرغَم الأمم الأخرى على تبنّيها، تحت طائلة أن تُستَعبَد. على الرّغم من خوف أوروبا من الجرمانيّة، فإنّها مُهدَّدة بالخضوع للمبادئ العسكريّة مع كلّ العبوديّات السياسيّة الّتي تُفضي إليها.

(12)

لنفترض أنّ النّزعة العسكريّة الألمانيّة تدمّرت. كيف يُمكن منعها من الانبعاث مجدّدًا، إن لم نعارضها بنزعة عسكريّة أقوى. الواقع أنّ عسكرةً عالميّة ستُصبِح ضروريّة من أجل نزع صفة العسكرة عن شعبٍ واحد.

(13)

لن يكون بمقدور أوروبا أن تتجنّب النّزعة العسكريّة إلّا من خلال تحوّل عميق في ذهنيّة الشّعب الألمانيّ. هذا المستقبل الممكن مُستقبلًا، مستبعدٌ اليوم.

(14)

ما دامت تصوّراتُ ألمانيا العسكريّةُ لم تتحوّل، فإنّ الشّعوب ستحصل على هدنة، لكنّها لن تحصل على سلام دائم.

(15)

نتكلّم غالبًا عن مجتمع أمم، لكن كما صرّح أحد رؤساء الوزراء في البرلمان، لن يكون بمقدور هذا المجتمع أن يتكوّن إلّا من شعوبٍ مُسَلَّحة. وعليه، من المستبعَد أن تبقى شعوب مسلّحة مسالمة لوقت طويل. على الأقلّ هذا ما يُعلّمنا إيّاه كلّ من التاريخ والسّيكولوجيا.

(31) كانت قضية زابرن أو سافيرن أزمة في السياسة الداخليّة حدثت في الإمبراطورية الألمانية في نهاية عام 1913 نتيجة لخلاف بين مجموعة من الجنود وأبناء زابيرن في مقاطعة الألزاس ـ اللورين (حاليًا سافرن في فرنسا). ولقد أظهرت الأزمة عدم فعالية المعارضة البرلمانية في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى.

كانت الألزاس اللورين، التي ضمت إلى الإمبراطورية الألمانية في العام 1871 بعد الحرب الفرنسية البروسية 1870، قد حكمت كمقاطع محتلة حتى العام 1902. ومع العام 1913 كان عبء النفقات العسكرية الألمانية، والسياسة الخارجية، قد سبّبا تململاً واسعاً في صفوف أبناء المنطقة الذين ينتمي قسم كبير منهم إلى فرنسا. وأدت بعض العبارات المهينة التي أطلقها ملازم ألماني على الألزاسيين في زابيرن إلى وقوع اضطرابات أسفرت عن اعتقال 29 مدنياً في 28 نوفمبر 1913.

الفصل السّابع التطوّرُ الصّناعيُ للحروبِ الحديثةِ

(1)

الواقع أنّ مؤسّس المدفعيّة غدا أكبرَ مُحَكِّمٍ في الأزمنة الجديدة. فأسياد العالَم لا يستطيعون القيام بشيء من دونه.

(2)

حقيقة الأمر أنّ الحروب الحديثة حروب صناعيّين أكثر منها حروب جنرلات. فعبقريّة يوليوس قيصر وعبقريّة نابليون تبقيانِ عاجزتين أمام خصم يملك عددًا غير محدود من المدافع.

(3)

تلعب القوى العاملة دورًا هامًّا لكنّه غير ضروريّ في الحرب الحاليّة. فوسائل التّدمير الميكانيكيّة تُمارس تأثيرًا كبيرًا من شأنه أن يتنامى أيضًا مع تطوّر الصّناعة. في المستقبل، لن تكتسبَ الدّول الأكثر ازدحامًا بالسكّان الهيمنة العسكريّة، بل ستكتسبها تلك التي تملك أكبر قدرٍ من الأجهزة التّدميريّة.

(4)

الفلاسفة الّذين يُريدون أن يُظهروا وفق أيّ صعوبات تُؤَسَّس بعض الحقائق الأساسيّة سيتذكّرون أنّه لا بدّ من أشهر طويلة من المراقبة ومن خسارة عشرات آلاف الرّجال من أجل تبيّن دور الخنادق، والأسلاك الحديديّة، والمدافع بعيدة المدى.

(5)

تكوّنت الحربُ من عناصرَ لم يعرفها أيّ من جنرالاتنا: غوّاصات، وخنادق، وأسلاك حديديّة، وطائرات، ومدافع ثقيلة.

(6)

يُشكِّل الخندق حصنًا متحرِّكًا يُنقَل إراديًّا عند الاستيلاء عليه أو عند تدميره.

(7)

جعل الخندقُ الحديثُ المعاركَ القديمة الحاسمة من مثل معركة Actium وIéna وWaterloo الّتي حدّدت في يومٍ واحدٍ مصيرَ بلدٍ أمرًا مستحيلًا. على الرّغم من أنّ الحروب الحاليّة طويلة جدًّا ومدمّرة للغاية، فإنّها تبقى غير حاسمة.

(8)

بادئ ذي بدء استخفّ القادةُ العسكريّون بالمدفعيّة الثّقيلة، لكن سُرعان ما عُدَّت العنصر الأكبر من عناصر المعركة. مع ذلك، يُمكن القول إنّ فعاليّتها محدودة، ذلك بأنّ الألمان لن ينجحوا أبدًا في الاستيلاء على Verdun.

(9)

الواقع أنّ صعوبات الهجوم الحديث، والاستحالة المستمرّة في اختراق خطوط الخنادق، قد أُلقِيَ الضّوء عليهما من خلال الإحصاءات الّتي أكّدت أنّ تدميرَ مترٍ واحدٍ من الخنادق يُكلِّف ثلاثين ألف فرنك، وثلاثة أطنان من الصُّلْب، ومن أربعة إلى خمسة أيّام عمل، في حين أنّ عملَ يومٍ واحدٍ يكفي من أجل إصلاح خندقٍ بنفس الحجم.

(10)

أثبتت الحرب مرّة أخرى أيضًا أنّ أيّ عمليّة تدمير تتسبّب مباشرة في خلق وسائل حمايةٍ منها. فمدافع عيار 420، والمناطيد، والغازات الخانقة، إلخ، رأت سريعًا نتائجها تكاد تنعدم. الغوّاصة نفسها لن تتملّص طويلًا من هذا القانون. فلكي لا يُقهرَ حقًّا عاملُ تدميرٍ، يجب أن يملك نتائج فوريّة لكي يُدمِّر الجيوش والمدن قبل أن تملك الوقت الكافي لتُدافِع عن نفسها.

(11)

عندما يُحقّق التطوّر الصّناعيّ كلّ تقدّمه، سيتمّ التّلاعب بسهولة بعددٍ كبير من معدّات التّدمير من قِبَل مجموعةٍ صغيرة من المختصّين المتمرّسين. وآلة القتل ستحلّ محلّ المقاتِل، تمامًا كما حلّ الفحم محلّ العبد.

الفصل الثّامن إمكانات المستقبل

(1)

في الأزمنة المضطربة يُغَلِّفُ مجالُ غير المتوقَّع تمامًا مجالَ الممكنِ ذلك بأنّ الفكر يتراجع أمام ظلمات المستقبل. مع ذلك بإمكان الفكر وحده أن يضيء الدّرب قليلًا حيث ينبغي للشّعوب أن تلتزم بوعودها.

(2)

لا تكفي دروسُ الماضي أبدًا من أجل إرشاد الشّعوب التي تسير على الدّروب المجهولة. إذا أُجبِرَتِ الشّعوب على التصرّف كما لم تتصرّف يومًا، فإنّ أفكارها ستوجّهها نحو مبادئ توجيهيّة جديدة خلقتها الضّرورات الجديدة.

(3)

على الرّغم من أنّ الحاضر ينطوي على المستقبل، فإنّ هذا الأخير لا يُمكن أن يلحَظ إلّا على شكل إمكانات.

(4)

إنّ التوقّعات المؤسّسة على تقديرات المصالح يُمكن أن تكون عقلانيّة. مع ذلك، من النّادر أن تكون عقلانيّة. فالأهواء والتّأثيرات الصّوفيّة هي دوافع حياة الشّعوب التي تتلاشى أمامها كلّ اعتبارات المصالِح.

(5)

توقّعاتنا المستقبليّة هي على وجه الخصوص توقّعات آمال لا تربطها صلة ضروريّة بالحقيقة. بيد أنّنا لا نستطيع الاستخفاف بها لأنّها شكّلت دوافعَ أفعالٍ قويّة للغاية. إنّ بشريّةً محرومة من الآمال، تجد عناءً كبيرًا في العيش.

(6)

إذا فكّرنا في المستقبل من خلال الماضي، وإذا تذكّرنا استمرار الأفكار ذات الأصل الصّوفيّ، يُمكننا أن نخشى على أوروبا من حرب ثلاثين عامًا جديدة تنقطع فقط من خلال عمليّات سلام غير مؤكّدة. الحقّ أنّ الصّراع يُمكن أن يستمرّ لفترةٍ أطول إذا لم تتغيّر الذّهنيّة الألمانيّة. في الواقع، لن تمنع الهزائم قطّ الصّليبيّين ولا الحروب الدّينيّة من التجدّد لزمن طويل ما دامت الأوهام الصوفيّة الّتي ولّدتها مستمرّةً.

(7)

بقدر ما تتطوّر الحضارة، تُثير صراعات أكثر فأكثر تهديدًا. إذا دخلت كلّ تطلّعات الهيمنة الألمانيّة، والروسيّة، والبلجيكيّة، واليابانيّة، إلخ، التي تتعاظم شيئًا فشيئًا، في صراعٍ بعضها مع بعض، فإنّ عصر السّلم سيُقفل لوقت طويل.

(8)

لا يُمكننا أن نتكهّن بنتيجة الحروب الحديثة من خلال القواعد الّتي طُبِّقت على الصّراعات القديمة. ذلك بأنّ خسارةَ حربٍ أو حربين في الماضي كانت كفيلة بتحديد مصير شعب، إذ لم يكن بإمكان أيّ شيء أن يحلّ محلّ الجيوش المتحاربة. بيد أنّ خسارة عشرات آلاف الرّجال اليوم لا يُمكن أن تُفضي إلى حلّ حاسم، ويعود السّبب في ذلك إلى وسائل الدّفاع الحاليّة، وإلى سهولة استبدال المقاتلين.

(9)

يكمن واحدٌ من الدّروس الأساسيّة للحروب الجديدة، والّتي يُمكن أن تحول دون تكرارها المستمرّ، في أنّ خسارةَ أيّ طرفٍ الحربَ التي يُشارك فيها ملايين الرّجال يبدو أمرًا مستحيلًا. ندمِّر جيشًا، لكنّنا لا نُبيد شعبًا.

(10)

ينبغي لنا، من أجل تقدير المدّة المحتملة للحرب، أن نأخذ بالحسبان الهدف الحقيقيّ الّذي يتبعه المحاربون. فرهانُ الحربِ الأوروبيّةِ الرئيسيُّ هو في الحقيقة أنتويرب Anvers، وبخاصّة القسطنطينيّة مفتاح التّجارة في الشّرق الأوسط، وفي مصر، وفي طرق الهند. فامتلاك المدينة القديمة يعني استعباد جزء من أوروبا اقتصاديًّا.

(11)

الواقع أنّ أدقّ التّأمّلات في الضّرورة، بالنّسبة إلى فرنسا، هي تفادي سلامٍ غير مؤكّد صاغه واحدٌ من أعدائنا، وأعني أمير هوهنلوه(32): «فرنسا، قال، ستُقاتِل مهما كلّف الأمر حتّى النّهاية، فالشّعب الفرنسيّ يعي بوضوح أنّ الأمر يتعلّق بوجوده. يعلم أنّه لن يجد إلى جانبه أبدًا حلفاءَ كثيرين وحلفاء أقوياء. يعلم أنّه لن يخرج منتصرًا من الصّراع المرعِب الّذي انخرط فيه حاليًا. لقد فقد كلّ حظوظه في النّصر إلى الأبد».

(12)

يُمكننا أن نأمل في أن تمنع ذكرى التخريب والتهديم اللّذين تسبّبَ فيهما الصّراع العالميّ عودةَ الحروب لوقت طويل، إذا جهلنا كم أنّ ذاكرة الشّعوب قصيرة وضعيفة.

(13)

إنّ تدمير المدن الخلّابة من قِبَلِ جحافلَ عاجزة عن السّيطرة على وحشيّتها السّلفيّة يسمح لنا بأن نتخوّف من تدمير التحف الرائعة في المستقبل، التّحف الّتي نجت من التّخريب لقرونٍ طويلة. قد يحفظ لنا المستقبل عالمًا تحلّ فيه المصانع، والثّكنات، والخنادق محلّ التّحف الرائعة المدمَّرة. عندئذٍ ستندم الشّعوب المتحضِّرة لأنّها عاشت طويلًا.

(14)

سينصبُّ هدفُ المعارك المستقبليّة الأساسيّ، المعارك التي ستكون في أغلب الظّن جويّة، على حرق المدن، وعلى إبادة سكّانها من خلال مجموعة صغيرة من المهندسين. الواقع أنّ التّدمير المنهجيّ للسكّان المدنيّين المسالمين سيحلّ حتمًا محلّ تدمير السكّان المسلَّحين.

(15)

أكّد دبلوماسيّ ألمانيّ أنّه مع التقدّم السّريع في وسائل التّدمير، ستُفضي الحرب المقبلة إلى إفناء العرق الأبيض. إنّ اختفاءه التامّ يبدو محلّ شكّ، لكن من الممكن، إذا تكرّرت صراعات كهذه، أن ينتقل صولجان الازدهار إلى أيدي أمم الشّرق الأقصى.

(16)

حقيقة الأمر أنّ الشّعوب الّتي ستعتاد تمامًا، بفعل الأشكال الجديدة للحرب، سيطرة الدّولة على الحياة الوطنيّة، والحريّة، والثّرة، ووجود المواطنين، ستتساءل ما إذا كانت هذه العودة إلى العبوديّة القديمة ستُصبِح قانون العالم في المستقبل. الحقّ أنّ مفاهيم من مثل الحقّ الفرديّ والحريّة ستتلاشى إلى حدّ أنّها ستستعصي على الفهم.

(17)

طالبت شخصيّة من أهمّ شخصيات الإمبراطوريّة الألمانيّة الدّولةَ بإجبار كلّ المواطنين على ممارسة عمل يدويّ من أجل تكوين الثّروات الضّائعة مجدّدًا. سيتمّ منعُ تصنيعِ الأشياء الفاخرة، وستفرض ضرائب باهظة على الأشخاص الّذين يُطالبون بحماية هذه الأشياء، وتحديدًا اللوحات الفنيّة. إذا نُفِّذت هذه المشاريع، فستُصبح ألمانيا مصنعًا ضخمًا حيث ستُصنَّع كتلة المواطنين، تحت هراوة العرفاء(33) الأشدّاء، موادّ للتصنيع، ومدافعَ، في مقابل حصولها على حصّة متواضعة من البيرة ومن مخلّل الملفوف. ينبغي توفّر ذهنيّة خاصّة جدًّا من أجل نشر مثل هذه الجحيم بوصفها مثالًا أعلى للحياة.

(18)

هل ستكون الحياةُ في الثّكنة أو المصنع بانتظار الموت في ساحات الوغى حقًّا مآلَ قرونٍ من الحضارة ومن الجهود المبذولة؟ عندئذ تنبغي العودة إلى عصر الكهوف. لا شكّ في أنّ الإنسان عاش في ظلّ تلك العصور بمخاوف كثيرة، لكنّه كان يتمتّع ببعض الحريّة.

(19)

لن تكمن الفرصة الوحيدة الممكنة من أجل الحصول على سلامٍ دائمٍ في تحالف الشّعوب، ذلك بأنّ التّحالفات هذه غير مضمونة، ولا في البرهنة على الترابط الصناعيّ بين الأمم، ولا في الإيمان الصّوفيّ المسيطِر على كلّ المصالِح، لكنّها ستكمن في استبدال فلسفةٍ جديدة لدى الشّعب الألمانيّ بالمثال الأعلى الصوفيّ القديم عن الهيمنة. إنّ تحوّلات كهذه تكون دائمًا بطيئة للغاية.

(20)

يبدو احتمالًا ضعيفًا أن تأمل أوروبا في أن تشهد مجدّدًا عصرَ حريّةٍ يمتدّ أمدًا طويلًا. بعيدًا من النزعة العسكريّة التي تتهدّد أوروبا، نتساءل كيف بإمكانها أن تتخلّص من القيود المختلفة التي يحلم منظّرو الدّولانيّة والاشتراكيّة بتقييدها بها؟

(32) إرنست الثاني (1863 ـ 1950): أمير هوهنلوه لانجنبرج كان سياسيًّا ودبلوماسيًّا وأرستقراطيًّا من ألمانيا. انظر ويكيبيديا (المترجم).

(33) جمع عريف. رتبة عسكريّة في الجيش.

الكتاب الثامن في دائرة العلم

الفصل الأوّل الحقائق العلميّة وحدود يقينيّاتنا

(1)

يستخدم العالِم قوى الطّبيعة ويُحدِّد قوانينَها، لكنّه يجهل ماهيّتها جهلًا عميقًا.

(2)

في فجر العلوم تبدو الحقائق قابلة للتّفسير بسهولة. لكن عندما يتعاظم العلم، تُصبِح الظّاهرات، التي تبدو بسيطة ظاهريًّا، من مثل احتراق الشّمعة، أو سقوط جسم، غير قابلة للتّفسير.

(3)

في مجال الملاحظة لم يُفلِس على الإطلاق. الواقع أنّ هذا الإفلاس ليس حقيقيًّا إلّا في دائرة التّفسيرات.

(4)

يتوقّف تفسير كلّ حقائقنا العلميّة، بما هي تقديرات تقريبيّة بالنّسبة إلى قياساتنا، على الذّهنيّة التي تصوغها.

(5)

ينتهي الأمر، بشكل عام، بنتائج القوانين العلميّة بأن تكتسب أهميّة أكبر من اكتشاف هذه القوانين. يُمكن التّعبير عن المبادئ الثّلاثة الضّروريّة للديناميكا الحراريّة ببضعة أسطر، لكنّ المبادئ هذه ولّدت مجلّدات تفسيرٍ كثيرة.

(6)

الواقع أنّ الحقائق العلميّة الأكثر وثوقًا في الظّاهر لا تعدو كونها يقينيّات اصطلاحيّة. والحال أنّ المسلّمات الأساسيّة لعلم الهندسة تُطبَّق على أجسام تستعصي على الفكر. عبثًا نسعى إلى تخيّل نقطة، على سبيل المثال، ليس لديها ثلاثة أبعاد. إنّ نقطةً حقيقيّة، أي

نقطة يُمكن التفكّر فيها، تملك حتمًا امتدادًا، ويُمكن بالمحصّلة أن يمرّ بها عدد كبير من الخطوط المتوازية، خلافًا لواحدة من أشهر مسلّمات علم الهندسة.

(7)

تبدأ الاكتشافات العلميّة الكبرى بحدوسٍ تبزغ في العقل على شكل فرضيّات ينبغي للتجربة من ثمّ أن تتحقّق منها.

(8)

إنّ رفض قبول الفرضيّة مرشدًا هو إدانة الذّات في اتّخاذها الصّدفة سيّدًا لها.

(9)

عاش أناسُ كلِّ العصور الفرضيّات، بيد أنّ الجاهل يقبلها على أنّها يقينيّات حتميّة، في حين أنّ العالِم لا يُعطيها قيمة إلّا بعد تحقّق تجريبيّ. الفرضيّة وحدها بالنّسبة إليه درجة من درجات الحقيقة.

(10)

لا تحتاج نظريّة علميّة وبخاصّة فلسفيّة لكي تنتصر إلى الاستناد إلى اعتبارات موثوقة. يكفي أن تدعمها اعتقادات قويّة للغاية.

(11)

إنّ ابتذالًا يُعبَّر عنه بمصطلحات علم الجبر يتوقّف، في نظر عقولٍ كثيرة، عن أن يكون مبتذلًا. فالنّظريّة الأكثر غموضًا تُقْبَل بسهولة منذ اللحظة التي ترتدي فيها شكلًا فلسفيًّا.

(12)

يُظهر تاريخ العلوم أنّ العديد من القضايا المعتمدة بوصفها حقائق هي، في الأغلب، وجهات نظر بسيطة موقّتة منذورة للزوال.

(13)

لا يُشكِّل قِدَمُ عقيدة البتّة دليلًا على دقّتها. فعلى امتداد ألفَي عام اعتقد الفلاسفة والعلماء بعدم انقسام الذّرّة. اليوم أثبتت التّجربة أنّ المادّة تخضع للقانون الكونيّ الّذي يحكم على الأشياء بالشّيخوخة والموت(34).

(14)

من النّادر، حتّى في المادّة العلميّة، أن تكون التّجربة وحدها سندًا لاعتقاداتنا. فالنّظريّات سهلة الإثبات، من مثل جريان الدم أو تحرير المادّة، لم تُقبَل إلّا بعد موافقة العلماء الّذين تمتّعوا بمكانة رسميّة(35).

(15)

المنفعة والحقيقة مفهومان متباينان للغاية. يُمكن أن نُرغَم على قبول ضرورة، لكن من الخطير بالنّسبة إلى تقدّم العقل البشريّ تحديد الحقيقيّ والمفيد، كما يفعل البراغماتيّون.

(16)

قد توجد حقيقتان متناقضتان لكنّهما ليستا في بعض الأحيان سوى شذرتين مُكَمِّلَتينِ للحقيقة نفسها.

(34) يعود هذا البرهان إلى مؤلِّف الكتاب الحاليّ. لقد تطلّبت منه عشرة أعوام من الأبحاث الاختباريّة المدوَّنة في ثمانية عشر بحثًا، قبل أن يُلخّصها في كتاب وُسِمَ بعنوان **تطوّر المادّة**، وها هيذي طبعته الثّلاثون في طور الظّهور.

(35) لقد أتيحت لي فرصة التحقّق من صحّة هذه القضيّة عندما أنفقت ثلاثة أعوام وحدي أدافع، خلافًا لتأكيدات أشهر فيزيائيّي فرنسا، عن أنّ الأشعّة المنبعثة من اليورانيوم التي لا تتكسّر ولا تنعكس ولا تُشَلّ تنتمي إلى حقل فيزيائيّ جديد بالتّمام.

الفصل الثّاني الحقائق الفاعلة والحقائق غير الفاعلة

(1)

يُمكن يقينيّاتنا، من وجهة نظر تأثيرها في السّلوك، أن تنقسم إلى حقائق فاعلة وحقائق غير فاعلة. تُصاغ الحقائق غير الفاعلة في ادّعاءات مبتذلة يُردّدها كلّ شخص من دون أن يتأثّر بها إلى حين تقع كارثة تكشف لهم عن قوّتها.

(2)

إنّ حقيقةً تتعارض مع المشاعر، أو الأهواء، أو الاعتقادات، أو المصالِح أو ببساطة مع اللامبالاة، تبقى حقيقة غير فاعلة. بل إنّها تكفّ، في نظر عقولٍ كثيرة، عن أن تُشكّل حقيقة.

(3)

كنّا نمتلك قبل الحرب عددًا كبيرًا من الحقائق غير الفاعلة من مثل: تفوّق المدافع بعيدة المدى، وفائدة الذخائر المتعدِّدة، وقيمة الخنادق، وحقائق أخرى كثيرة. التّجربة وحدها كشفت عن قيمتها.

(4)

إنّ منطوقَ أيِّ حقيقة يبقى بلا أهميّة ما دامت لم تمسس بما يكفي العقل لكي تُصبِح دافعًا للفعل.

(5)

الكوارث في بعض الأحيان ضروريّة من أجل تحويل الحقائق غير الفاعلة إلى حقائق فاعلة. أظهر توقّف تراجع الألمان بعد معركة المارن، طبقًا لنظريّات كتبهم، أنّنا نستطيع بوساطة الخنادق أن نوقف الغزو. كانت لدينا ثمانية أقسام مدمَّرة ذلك بأنّ هذه الحقيقة الفاعلة بالنّسبة إلى الألمان ظلّت غير فاعلة بالنّسبة إلينا.

(6)

تُعَدَّ بعض الحقائق غير فاعلة لأنّ بساطتها الظاهرة تُخفي تبعات يصعب توقّعها. يُمكننا أن نعتبر، على سبيل المثال، بمثابة حقيقة بديهيّة عدم وجوب المطالبة بمنافسة خصومنا على أراضٍ تجعلهم مواردها الطّبيعيّة الأقوى على الدّوام. يتفوّق محتوى هذه الحقيقة على جزئها البديهيّ، ذلك بأنّه يبدو غير مفهومٍ بعد على نحوٍ كافٍ. يتوقّف كلّ مستقبلنا الاقتصاديّ على فهمه التّام.

(7)

الحقائق البديهيّة تُصبِح سريعًا حقائق غير فاعلة. لذلك ينبغي تكرارها على الدّوام تحت أشكالٍ مختلفة.

(8)

يتوقّف نجاحُ أيّ حقيقة على اللحظة الّتي تُصاغ فيها. فعندما نصحَ جنرال إنجليزيّ شهير بلده، قبل الحرب، بضرورة تكوين جيشٍ مقتدرٍ، لم يستمع بلدُه إليه. الأمر نفسه يُقال في مجال العلم المحض. ما من أحدٍ تبنّى آراء لامارك عندما سبق داروين في حديثه عن النظريّة التحوّليّة.

(9)

ثمّة حقائق قادرة على إنارة المستقبل، لكنّها تبقى من دون تأثير في الحاضر عندما لا توجد إلّا عقول قليلة قادرة على تبيّنِها.

(10)

يولّد الخطأُ في بعض الأحيان الفعلَ أكثر ممّا تولّده الحقيقة.

الفصل الثالث الطّبيعة والحياة

(1)

تُمثِّلُ حياةُ أيّ كائن حصيلةَ وجود ملايين الخلايا الصّغيرة تشغلُ وظائفَ مختلفة للغاية، وتتصرّف كما لو كانت تُشكِّل ذواتٍ فردانيّةً متميِّزة، ذلك بأنّ كلّ ذات قادرة على قيادة تطوّرها باتّجاهٍ معيّن.

(2)

يُمكن مقارنة الكائن الحيّ ببناءٍ تتآكلُ أحجارُه سريعًا، لذا يجب استبدالها باستمرار. يحتفظ البناء بشكله إلى حدٍّ ما، لكنّه لا ينطوي مع ذلك على أيٍّ من موادّه الأوّليّة.

(3)

الواقع أنّ خلايا أيّ كائن حيّ تُمارِس في خلال تطوّرها سلسلة عمليّات فيزيائيّة وكيميائيّة أكثر تعقيدًا من العمليّات التي تجري في مختبراتنا. هذه العمليّات لا تجري وفقَ آليّة عمياء على الإطلاق، ذلك بأنّها تتغيّر وفاقًا لضرورات اللّحظة. الحقّ أنّ الأمور تسير كما لو أنّ الخلايا تُقاد من قِبَلِ ذكاءات مختلفة عن ذكاءاتنا، وفي حالات كثيرة من قِبَل ذكاءات تتفوّق علينا.

(4)

حقيقة الأمر أنّ الخليّة الصّغيرة الأولى الّتي يتأتّى منها كلّ كائن حيّ، والّتي تطوّرت باتّجاه معيّن، ستُصبِح عصفورًا أو إنسانًا. تنطوي هذه الخليّة على ماضٍ طويل وعلى مستقبل عظيم. يكشف العنصر الصّغير هذا، الـمُحَمَّل بأكداس العصور، عن عالَمٍ من القوى مُوَجَّهٍ من قِبَل آليّةٍ يبقى فهمُها فوق مستوى ذكائنا.

(5)

العالِم القادِر على حلّ المشكلات التي تحلّها في كلّ لحظة خلايا أيّ كائن بشريّ يمتلك ذكاءً يتفوّق كثيرًا على ذكاء أناسٍ آخرين إلى حدّ أنّه يستحقّ أن يُعَدّ بمثابة إله.

(6)

الواقع أنّ القانون المرعِب المتعلّق بالصّراع من أجل الحياة، ونعني القانون الّذي تجهد الحضارات بشقّ الأنفس في التّخفيف من حدّة نتائجه يبدو قانونًا أزليًّا. فخلايا جسمنا البشريّ تُقاتِل بعضها بعضًا باستمرار. والصّراع حادّ أيضًا في عالم النّبات شأنه في ذلك شأن عالم الحيوان. فالنباتات تتقاتل على سطح الأرض لكي تأخذ مكانًا لها تحت ضوء الشّمس، وتتقاتل تحت الأرض لكي تستحصل على أغذية الأرض.

(7)

التغيُّر والصّراع قانونا الحياة. الراحة تعني الموت.

(8)

القوى الفيزيائيّة، والإشعاع الشّمسيّ تحديدًا، تُحدِّد شروط حضارتنا. سواء تعلّق الأمر بحرارة شديدة أو ببرد شديد، فإنّهما يستتبعان الحياة البدائيّة أو على الأقلّ البربريّة.

(9)

كلّ عصرٍ جيولوجيّ كان له ملوكه المبدعون. فبعد المفصليّات ثلاثيّة الفصوص(36) التي شهدها العصر البدائيّ عرف العصر الذي تلاها الزواحف العملاقة، ولاحقًا الثّدييات حيث وجب على الإنسان أن يظهر يومًا بانتظار أن يرى العالَمُ أسيادًا جددًا يظهرون. ربّما سيتميّزون بذكاء كافٍ يُمكّنهم من فهم ظواهر الحياة الذي يتعذّر فهمها اليوم.

(10)

إنّ قانون تحوّل الكائنات عن طريق الطّفرات الفجائيّة الّذي ينزع إلى أن يحلّ محلّ التطوّر البطيء، يُشير فقط إلى أنّه بعد سلسلة متتالية من التحوّلات الدّاخليّة غير المتوقّعة، تتغيّر توازنات الكائن الحيّ بما يكفي لكي يُغيِّر سببٌ طفيفٌ مظهرَها فجأةً.

(11)

الطّفرة الفجائيّة ثورةٌ، لكنّها ثورةٌ تُتَوِّجُ ثورةً بطيئة. تُمثِّل ثورات الشّعوب تطبيقًا للمبدإ نفسه.

(12)

عندما يتدخّل الزّمن في المعادلةِ العامّة للأشياء، يُمكن اللامتناهي في الصِّغَر أن يُفضي إلى اللامتناهي في الكِبَر. ذلك بأنّ جزرًا وجبالًا وُجِدت من جرّاء التراكم المستمرّ لحبيبات الرّمل الصّغيرة. والحال أنّ النّملةَ قادرةٌ، إذا أُعطيت الوقت اللازم، على أن تُسوِّي أعلى القمم بالأرض.

(13)

الزّمان شريكٌ حتمًا في كلّ عمليّة خلق. الآلهة نفسها لا تستطيع شيئًا من دونه.

(14)

الواقع أنّ الطّبيعة لم تُكرِّس الهاوية العميقة هذه بين الحيوانات والإنسان، الهاوية الّتي نسعى إلى الإشارة إليها عن طريق استخدام عبارات الازدراء التي تعجّ بها لغتنا. في نظرنا، أنثى الحيوان ليست حاملًا بل ممتلئة، ولا تلِد بل تضع، ولا تموت بل تنفق، ولا تُدفن بل تُطمَس. لا يعود احتقارنا الحيوانات إلّا إلى جهلنا بصلة القرابة بيننا وبينها.

(15)

من الحماقة أن نتحدّث دائمًا عن أهداف مفترضة للطّبيعة، في حين أنّنا لا نعرفها إلّا قليلًا. الحقّ أنّها تعمل على مستوى مختلف تمامًا عن المستوى الذي نعمل عليه. فقيمها ليست قيمنا، ناهيك بكونها تجهل معاييرنا.

(16)

حينما استذكر الألمان كيف طوّرت الطّبيعةُ الكائنات ودمّرت الأكثر ضعفًا منها، في محاولةٍ لتبرير أعمالهم التخريبيّة، نسوا أنّ كلّ تقدّم الحضارة يُركّز على تجنيب الإنسان قوى الطبيعة. سيطرت الطبيعةُ علينا قديمًا، لكنّنا نحن من نسيطر عليها اليوم.

(17)

يبدو أنّ الحضارة والطّبيعة يتبعان أهدافًا مختلفة تمامًا، وغالبًا ما تكون متناقضة. العدالة ابتكار بشريّ ضروريّ لوجود المجتمعات، لكنّ قوى الطّبيعةِ العمياءَ لا تعرفها البتّة.

(36) مفصليّات ثلاثيّة الفصوص Trilobites: مفصليات ثلاثية الفصوص أو ثلاثية الفصوص أو الترايلوبيت (بالإنجليزية: Trilobite) هي طائفة من مفصليات الأرجل تقع ضمن الأحفوريات البحرية المنقرضة. ظهرت الفصوص الأولى في سجل الحفريات خلال

الفترة المبكرة من العصر الكامبري (540 مليون سنة) إلى العصر الديفوني، وهي جميعها كائنات بحرية. (انظر ويكيبيديا. المترجم).

الفصل الرابع المادّة والقوّة

(1)

قادنا تطوّرُ الفكر العلميّ من اليقين المطلق إلى الارتيابات المتتالية. حقيقة الأمر أنّ العلم مثَّل منذ خمسين عامًا دائرة حقائق بحيث لم يرقَ إليها الشكّ أبدًا. الواقع أنّ حجمَ أسسِ البناءِ كان ضخمًا. ذلك بأنّ معادلات العلماء ربطت بين عناصر غير القابلة للاختزال التي تنطوي عليها الأشياء: فالزمان، والمكان، والمادّة، والقوّة تبدو جميعها مرسومة بحسب طبيعة قوانينها. بيد أنّ الاكتشافات الحديثة دمّرت كلّ أوهامنا المتعلّقة ببساطة العالَم.

(2)

الواقع أنّ الميكانيكا التقليديّة، التي كانت قديمًا أكثر العلوم وثوقًا، هي تلك التي كشفت أكثر من سواها عن الارتيابات منذ اللحظة التي مسَّت التّجربةُ أسسَها. في الحقبة التي خال أتباعُها أنفسَهم فسّروا العالَم وفاقًا لمعادلات الحركة، بدا العالَمُ بسيطًا للغاية. اليوم أصبح عجز الديناميكا عن تفسير الأشياء أمرًا بديهيًّا. فالميكانيكا الطاقويّة، التي لا ترى في الظاهرات سوى طفرات طاقة، لم تنجح في إعطاء تفسيرات أكثر نجاعة.

(3)

الحقيقة أنّ التّجارب الجديدة المتعلِّقة بتغيّر الكتلة مع سرعتها، وبهويّة المادّة والقوّة، وبإشعاع الطاقة من خلال عناصر متغيّرة تُسمّى كوانتم، ومن ثمّ استبدال المتقطّع بالمستمرّ في الظاهرات، كانت كافية لتُظهِر ضعف صلابة المبادئ العلميّة التي كانت تُعَدّ قديمًا مبادئ غير قابلة للاختزال.

(4)

نبَّه عالم رياضيّات شهير وبحقّ، في ما يتعلّق بالأفكار الجديدة، إلى أنّنا نرى اليوم النظريّة نفسها «تستند تارة إلى مبادئ الميكانيكا القديمة، وتارةً إلى فرضيّات تناقضها تمامًا». الواقع أنّ العلم يكون واثقًا جدًّا عندما يقصر بحثه على مجال الوقائع، لكنّه يُصبِح أكثر ارتيابًا يومًا بعد يوم عندما يلجأ إلى التفسيرات.

(5)

الحقّ أنّ تصوّرات الميكانيكا، الّتي تغيّرت مرّات كثيرة في السّنوات الأخيرة هذه، ستتغيّر أيضًا عندما ستتعمّم فكرة أنّ المادّة تُمثّل ببساطة شكلًا من أشكال الطاقة يتمتّع بثبات موقّت. المادّة والقوّة اللّتان بدتَا قديمًا تُشكّلان عالمين منفصلين، تبدوان اليوم بوصفهما الشّكلين المختلفين للشيء عينه(37).

(6)

تبدو كلّ عناصر الطّبيعة مرتبطة بعضها ببعض من خلال روابط غير مرئيّة. الواقع أن تأثّر المحيط بخيوط الجاذبيّة يجعله يتَرَجَّح بين مدّ وجزر. علاوة على ذلك، يتغيّر حجم الجسم تمامًا تبعًا لدرجة حرارة بيئته. فالطاولة التي أخطّ عليها هذه السّطور تخضع لجاذبيّة كلّ كواكب العالَم، وهي بدورها تجذبها. لا شيء يبقى معزولًا في الآليّة التي يعمل بموجبها هذا العالَم.

(7)

أثبتت الظواهر غير المتوقّعة، التي كشف عنها تفكّك المادّة، أنّنا مَحُوطون بقوى عملاقة بالكاد نشتبه بها، قوى تخضع بدورها لقوانين ما زلنا نجهلها أيضًا. لعلّ أضخم هذه القوى هي الطاقة ضمن ـ الذريّة، التي كانت لسنوات قليلة مضت مجهولةً شأنها في ذلك شأن الكهرباء التي ظلّت مجهولة لقرون طويلة.

(8)

الواقع أنّ التفاعلات الكيميائيّة، أصل القوى التي نستخدمها، تُغيّر توازن الجزيئات، لكنّها بالكاد تمسس ثبات الذرّات. في اليوم الّذي يتوصّل فيه العلم إلى تفتيت كلّ ذرّات أيّ جسم، سيمتلك بين يديه مصدرَ طاقةٍ هائلًا، والحال أنّه سيجعل من استخدام الفحم استخدامًا غير مجدٍ، وسوف يُبدِّل تمامًا شروط وجود الشّعوب.

(9)

الحقّ أنّ المادّة الأكثر ثباتًا، من مثل كتلة الرّخام، تمتلك خلف ثباتها الظاهر حياة كثيفة، وتأثريّة شديدة تكشف عنهما بسهولة بعض الأدوات من مثل البولومتر.

(10)

المادّة، التي كانت تُعَدُّ قديمًا عنصرًا قاصرًا أو صورةً للراحة، لا تضمن استمراريّتها إلّا بفضل السرعة الهائلة التي تتمتّع بها حركةُ الذراتِ الإعصاريّةُ، السرعة التي تُكوّن هذه الذرّات.

وعليه، فالمادّة هي السّرعة وليست الرّاحة.

(11)

تُمثِّل المادّة حالة توازن بين القوى الدّاخليّة، ذلك بأنّها مقرّ تلك القوى، والقوى الخارجيّة التي تحيط بها. والحال أنّ تعريف الجسم يبقى غير منفصل عن تعريف بيئته. فالمعدِن الأقسى يتحوّل إلى بخار عندما تُواجه بعض التغيّرات. والماء يُصبح صلبًا أو سائلًا أو غازًا تبعًا للبيئة التي يغوص فيها.

(12)

من المذهل أن نتبيّن وفق أيّ صعوبة يتوصّل العلم، الّذي يراقب الوقائع بسهولة، إلى تحديد القانون. الحقّ أنّ الأبحاث المضنية لأكثر من نصف قرن كانت ضروريّة من أجل تبيّن أنّ القوانين التي تُحدِّد ظهور نمط معيّن من الطاقة: حرارة، كهرباء، حركة، إلخ، كانت تُماثل القوانين التي تحكم تدفّق السّوائل، وأنّه في المحصّلة لا يوجد أيّ تجلٍّ ممكن للطاقة من دون اختلاف في مستوى بعض العناصر.

(13)

في الطّبيعة، لا يرتبط صِغَرُ العناصر أحيانًا مع عظمة تأثيراتها. فالخليّة الأوّليّة للفيل أو للبلّوط هي أصغر حجمًا من رأس الدبّوس. فقطعة صغيرةٌ من المعدن تنطوي على كميّة ضخمة من الطاقة ضمن الذريّة.

(14)

مع وجود قوّة ما في الطّبيعة، يُمكننا أن نحصل على سائر القوى الأخرى، باستثناء القوى الّتي تُعطي الحياة للكائنات. الحياة وحدها تخلق الحياة.

(37) انظر: **تطوّر القوى**، لـغوستاف لو بون، الطبعة السادسة عشرة.

الفصل الخامس رؤى فلسفيّة

(1)

أن تتجسّد الطّبيعة على شكل كائن نحكم عليه انطلاقًا من مشاعرنا البشريّة، فهذا يعني أن تتمتّع بصفات متواضعة للغاية. قد تتكشّف وحشيّتها عن طريق الإلزام، ذلك بأنّها تجعل كلّ المخلوقات تلتهم بعضها بعضًا لكي تعيش. قد يبدو ذكاؤها محدودًا، إذ إنّنا نراها تجهد في تكوين أشكالٍ متعاقبة كثيرة قبل أن تنجح في تكوين الأشكال الأكثر كمالًا. أمّا إشفاقها، في نظرنا، فيكاد يكون منعدمًا، ذلك بأنّ وجود ميكروب قاتل أمرٌ مؤكَّد بدقّة شأنه في ذلك شأن وجود العبقريّات الفذّة.

(2)

عند سؤال الإنسان الّذي شخّص الطّبيعة عن مقاصده، سيُجيب حتمًا أنّه لا يمتلك، بفعل هيمنة الضّرورة والزّمن عليه، أيّ إرادةٍ، وأنّه لا يقرأ أفضلَ ممّا تقرؤه سائر المخلوقات في كتاب القدر.

(3)

لم يتوقّف النّاس عن أن يحلموا بالخلود، ومع ذلك يُسيطر الفناء عليهم دائمًا.
فالإمبراطوريّات الكبرى تلاشت، والآلهة نفسها تحوّلت إلى تراب، واليوم يُظهر علم الفلك أنّ الكواكب التي تسكن السّماء ستختفي أيضًا.

(4)

الواقع أنّ أفكارنا عن الأشياء تتغيّر بالضّرورة تبعًا لرؤيتنا الشّكل العابر لهذه الأشياء أو استمرارها الأبديّ.

(5)

علّمتِ الأديانُ الإنسانَ قديمًا أن ينظر إلى الماضي، واعتبرت أنّه سُلِبَ عظمته البدائيّة. أمّا العلم فيُظهر على العكس أنّ التقدّم لا يحصل إلّا في المستقبل. تخلق جهودنا قوّة مستقبل البشريّة.

(6)

يجب أن يحلّ شعور الاستمراريّة وقابليّة الكمال للعرق محلّ الأزليّة الفرديّة التي وعدت بها المعتقدات القديمة. هذا المثال الأعلى ليس غيرَ كافٍ، ذلك بأنّ ملايين الرّجال في ساحة الوغى يُضحّون بحياتهم من أجل ضمان رخاء أناسٍ لن يروهم أبدًا.

(7)

سوف يُفضّل العقل البشريّ على الدّوام تفسيرًا وهميًّا عوضًا عن غياب التّفسيرات.

(8)

الحقّ أنّ قوانين الظّاهرات مكتوبة في كتاب بحيث لا يكفي وجود بأسره لفكّ رموز بضعة أسطر منه.

(9)

أن نبقى مقتنعين بأنّ العالَم تُسيطِر عليه حتميّات خفيّة يبقى الإنسانُ عاجزًا حيالها، يعني أن ننسى أنّ كلّ تقدّم العلم يكمن تحديدًا في تفكيك الحتميّات. فالأوبئة الشّديدة كفّت عن أن تكون حتميّات عندما عُرِفَت أسبابُها.

(10)

يُمثِّل تقدّم الحضارة انتصارات متتالية للإنسان في صراعه ضدّ حتميّات الطّبيعة.

(11)

يبدو أنّ التّاريخ أثبت أنّ تطويع الطّبيعة أسهل من تطويع مشاعره. لقد جرى استعباد القوى الطّبيعيّة، والشّمس والبرق والمحيط غدت جميعها عبيدًا لنا، لكنّنا لم ننجح بعد في السّيطرة على بعض غرائز حيوانيّتنا البدائيّة.

(12)

لـمّا كان علمُ الفلك عاجزًا عن تحديد مسار ثلاثة أجسام تؤثّر بعضها في بعض، نتصوّر استحالة احتساب التّأثير المتبادَل لآلاف العناصر الّتي تتدخّل في الظواهر المجتمعيّة.

الحقّ أنّ التوقّع غير ممكن إلّا إذا أصبح واحدٌ من هذه العناصر راجحًا على حساب العناصر الأخرى.

(13)

لن يكون بمقدور العلم أبدًا أن يُشكِّل أساسَ أخلاقٍ إذ لا توجد أيّ مقارنة ممكنة بين القوانين الأخلاقيّة والقوانين الفيزيائيّة. فالقوانين الأخلاقيّة تُمثِّل ضرورات اجتماعيّة تتغيّر من شعبٍ إلى آخر. في حين أنّ القوانين الفيزيائيّة كليّة ولا تتغيّر البتّة.

(14)

تعود كلّ تعريفاتنا إلى مقارنات. والحقّ أنّ ما لا يُقارَن بشيء، من مثل المكان والزّمان والقوّة، ليس عصيًّا على التّعريف، بل عصيٌّ على القياس فحسب.

(15)

يتوقّف التقدير الفلسفيّ لقيمة الأشياء برمّته على وجهة نظر المراقِب. فالذّكاء المتفوّق والمستقلّ عن الزّمن قد ينظر إلى الأعراق البشريّة بوصفها أعشاشَ نملٍ تافهة تسكن كوكبًا محكومًا عليه بأن يبرد تدريجيًّا وصولًا إلى موتٍ مُحتَّم. إنّ عقلًا لا يأخذ بالحسبان سوى الطّبيعة قد يرى في أعظم عبقريّ وفي أكثر الأشخاص وضاعةً كائنين متشابهين ينبثقان من المادّة نفسها ومنذورين للعودة إليها سريعًا. من وجهة نظر بشريّة حصريّة، يُصبح الإنسان، على العكس، مركزَ كونٍ سيعيش مدّة طويلة للغاية بحيث يبدو أبديًّا.

(16)

ينبغي للمباحث التي تتناول عبثيّة الأشياء، والأسرار المحيطة بنا ألّا تستحوذ كثيرًا على أفكارنا. فالحكمة الصّحيحة تقتضي منّا أن نلتزم مسارها من دون أن ننشغل بالأهداف الغامضة المتعلّقة بكونٍ لن نفهمه البتّة. كيف ستكون حياةُ العابرين الذين لا يعيشون يومًا من دون أن يُنفقوا وقتهم في التكلّم على قِصَر هذا اليوم الواحد؟

(17)

بالنّسبة إلى الآلهة التي تملك علمًا لا متناهيًا بالغيب، والتي تُسكِنها الأديان في السّماء، فإنّ المستقبل، بسبب علم الغيب هذا، ثابت شأنه شأن الماضي بالنّسبة إلينا. وهي باسترجاعها السّلم الزمنيّ اللا متناهي بمحض إرادتها، لن يكون بمقدورها أن تميّز الخطّ الدّقيق الفاصل بين الماضي والمستقبل، الخطّ الّذي نُطلِق عليه اسم الحاضر.

(18)

إنّ السّعي وراء السّعادة، والسّعي وراء الحقيقة أمران مختلفان للغاية. بالنّسبة إلى الإنسان الحريص على سعادته، من الحكمة ألّا نبحث كثيرًا عن أسس الأشياء. أمّا الباحث الّذي يطمع في الحقيقة وحسب، فينبغي على العكس أن يسعى إلى تعميق كلّ شيء.

(19)

الواقع أنّ الاكتشاف الفلسفيّ الأعلى ـ ذلك بأنّه يسمح لنا بالتّوغّل في ماهيّة الأشياء ومجاورة المطلق ـ قد يكون بالتوصّل إلى معرفة المادّة والقوى بشكل مغاير عن علاقتها مع العالَم الخارجيّ. بيد أنّ تصوّرها حاليًّا على نحو مغاير أمرٌ مستحيل، إذ إنّ تلك العلاقات تشكّل وحدها الخصائص الّتي تسمح لنا بتعريف الأشياء.

(20)

يُفضي كلّ علمٍ سريعًا إلى جدار من السببيّات عصيّة المنال. والحقّ أنّه لا توجد ظاهرة واحدة سببها الأوّل معروف.

(21)

تكشف المراقبة الفلكيّة عن أنّ الكواكب في أطوار تطوّر مختلفة. لذا ينبغي لها أن تتبع مسار الأشياء الحتميّ: الولادة، والنموّ، والخمود، والموت. إنّ عوالمَ مأهولة مثل عالمنا، ومغطّاة بالمدن المزدهرة، ومليئة بروائع العلوم والفنون، قد خرجت أكثر من مرّة من الليل الأبديّ، وعادت إليه من دون أن تترك أثرًا وراءها.

(22)

يُمثّل الكون والكائنات التي تسكنه أشكالًا وقتيّة زائلة تحكمها قوى أبديّة.

انتهى

1. 1
2. الغلاف
3. الأمس والغد
4. مقدّمة المترجِم
5. مقدّمة
6. الكتاب الأوّل القوى التي تقود التّاريخ
7. الفصل الأوّل القوى الماديّة والأخلاقيّة
8. الفصل الثّاني القوى البيولوجيّة والوجدانيّة
9. الفصل الثّالث القوى الصّوفيّة
10. الفصل الرّابع القوى الجمعيّة
11. الفصل الخامس القوى الفكريّة
12. الفصل السّادس تفسيرات التّاريخ
13. الفصل السّابع الشّروحاتُ والأسبابُ
14. الفصل الثّامن اللا مُتَوقَّعُ في التّاريخ
15. الكتاب الثّاني في أثناء المعارك
16. الفصل الأوّل النّشأة السّيكولوجيّة للنّزاعات الكبرى
17. الفصل الثّاني العناصرُ السّيكولوجيّةُ للمعارك
18. الفصل الثّالث الرّوحُ الوطنيّة وفكرة الوطن
19. الفصل الرّابع حياة الأموات وفلسفة الموت
20. الفصل الخامس تغيُّراتُ الشّخصيّةِ التي خلقتها الحرب
21. الفصل السّادس أشكالُ الشّجاعة
22. الفصل السّابع فنُّ الإقناعِ، وفنُّ القيادة
23. الكتاب الثّالث سيكولوجيا الشّعوب
24. الفصل الأوّل روحُ الشّعوبِ وتشكُّلُها
25. الفصل الثّاني السّيكولوجيا المقارَنَة لبعضِ الشّعوب
26. الفصل الثّالث سوء التّفاهم بين الأعراق المختلِفة
27. الفصل الرّابع دور الأوهام في حياة الشّعوب
28. الفصل الخامس الآراء الفرديّة والسّلوك
29. الفصل السّادس الآراء الجمعيّة
30. الفصل السّابع الأفكار في حياة الشّعوب
31. الفصل الثّامن شيخوخةُ الشّعوب
32. الكتاب الرّابع العوامل الماديّة لقوّة الأمم
33. الفصل الأوّل عصر الفحم الحجريّ
34. الفصل الثّاني الصّراعات الاقتصاديّة
35. الفصل الثّالث الصّراع بين التصوّرات الوهميّة والضّرورات الاقتصاديّة

36. الفصل الرّابع دور الخصوبة
37. الكتاب الخامس عوامل سيكولوجيّة لقوّة الشّعوب
38. الفصل الأوّل دور بعض الخصال الثّانويّة في حياة الشّعوب
39. الفصل الثّاني الإرادة والجهد
40. الفصل الثّالث التكيّف
41. الفصل الرّابع التّربية
42. الفصل الخامس الأخلاق
43. الفصل السّادس التّنظيم والكفاءة
44. الفصل السّابع التّماسك الاجتماعيّ والتّضامن
45. الفصل الثّامن الثّورات والفوضى
46. الكتاب السّادس الشّعوب والحكومة الحديثة
47. الفصل الأوّل التقدّم الدّيمقراطيّ
48. الفصل الثّاني الدّولانيّة الألمانيّة والدّولانيّة اللاتينيّة
49. الفصل الثّالث الدّيانة الاشتراكيّة
50. الفصل الرّابع الخصال السّيكولوجيّة الضّروريّة للحكومات
51. الفصل الخامس عيوب الحكومات الّتي كشفت عنها الحرب
52. الفصل السّادس دروس سياسيّة مُستفادة من الحرب
53. الكتاب السّابع آفاق مستقبليّة
54. الفصل الأوّل بعض تبعات الحرب
55. الفصل الثّاني تهديداتُ السّياسةِ المستقبليّةُ
56. الفصل الثّالث الحقّ والقوّة
57. الفصل الرّابع الإصلاحات والقوانين
58. الفصل الخامس مستقبل التّرابط بين الشّعوب
59. الفصل السّادس عَسْكَرةُ العالَمِ
60. الفصل السّابع التطوّرُ الصّناعيُّ للحروبِ الحديثةِ
61. الفصل الثّامن إمكانات المستقبل
62. الكتاب الثّامن في دائرة العلم
63. الفصل الأوّل الحقائق العلميّة وحدود يقينيّاتنا
64. الفصل الثّاني الحقائق الفاعلة والحقائق غير الفاعلة
65. الفصل الثّالث الطّبيعة والحياة
66. الفصل الرابع المادّة والقوّة
67. الفصل الخامس رؤى فلسفيّة